جامعة الأزهر
كلية البنات الأزهرية
بطيبة

المجلة العلمية

(صفة الإمام العادل) للحسن البصري
دراسة أسلوبية

إعداد
د. راوية حسين جابر خليل
الأستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد في كلية البنات الأزهرية
بطيبة الجديدة– الأقصر

ملخص بحث

(صفة الإمام العادل) للحسن البصري دراسة أسلوبية

جمع الحسن البصري بين الحكمة والفصاحة ونصاعة البيان، وعاصر أحداثا جساما مرت بها الأمة الإسلامية بدءا من يوم الدار الذي شهده الحسن وفتنة مقتل عثمان –رضي الله عنه – وما تبعه من أحداث إلى أن تولى عمر بن عبد العزيز، فكان رجلا محنكا استخلص العبر من تلك الأحداث، ليضع تصورا لما ينبغي أن يكون عليه الحاكم العادل، فمن رحم تلك المحن ولدت رسالته (صفة الإمام العادل) التي كتبها لعمر بن عبد العزيز بناء على طلبه، وتعد الرسالة من الرسائل الإخوانية التي اشتملت على الوعظ والتوصية، ، وباعتبار أن "**الأسلوبية بلاغة حديثة ذات شكل مضاعف، ..... وأنها علم بلاغي**" [١] آثر البحث الدراسة الأسلوبية؛ ليكون عنوانه (صفة الإمام العادل للحسن البصري دراسة أسلوبية) حيث يقوم البحث بتحليل هذه الموعظة تحليلا أسلوبيا رابطا بين الصوت والدلالة، كاشفا عن معجم الحسن البصري الذي يستمد منه مفرداته بشكل يميزه عن غيره من الكُتّاب، مجليا خصائصها التركيبية والتصويرية.

وتستمدّ هذه الدّراسة أهميّتها من كونها دراسة أسلوبية لنموذج من أدب إمام التابعين متمتع بالجودة الفنية، استمد منه الحاكم العادل عظته، فكان لها أبلغ الأثر.

---

[١]) الأسلوبية، بيير جيرو، ترجمة / د. منذر عياشي، ط٢ مركز الإنماء الحضاري –حلب ١٩٩٤م ص٩.

Research summary

(The quality of fair "just" Alemam by El Hassan El Basry)

stylistic study

El Hassan El Basry gathered between wisdom ,fluency and glibness . He lived

Severe events which the Islamic nation passed ,starting from El Dar Day which

El Hassan witnessed and disorder of killing Othman-may Allah be pleased with him-and what followed it from events till Omar Ibn Abd El Aziz took over the responsibility .He was an experienced man and benefited from those events to

Put an ideation "conception "how should a fair governor be .The person

Who touched up these catastrophes ,his message was born (The quality of fair Alemam) which he wrote to Omar Ibn Abd El Aziz according to his demand and it is considered from the fraternity messages which included preaching and recommendation and it is considered the stylistic that is modern rhetoric with double form and its rhetorical science. The research preferred the stylistic study

to be a title of (the quality of fair Alemam by El Hassan El Basry stylistic study)

The research is based on analysis this sermon stylistically that link between sound

and Indication showing from El Basry dictionary from which he took his vocabulary

In a way distinguished him from other writers and showing structural and scenic

Characteristics . This study has its importance from being a stylistic one .It's a model of followers' Emam literature which

has an artistic quality .The fair governor took his preaching from it which had its great effect .

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا الكريم محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد :

فقد شغل الحسن البصري مكانةً مرموقة بين التابعين، وجمع بين الحكمة والفصاحة ونصاعة البيان ، وعاصر أحداثا جساما مرت بها الأمة الإسلامية في فترة من أحلك فترات التاريخ الإسلامي، حيث النزاع والشقاق وسفك الدماء بدءا من يوم الدار الذي شهده الحسن وفتنة مقتل عثمان –رضي الله عنه – التي ربما كانت سببا فيما طبع به الرجل من طابع الحزن، مرورا بما كان بين علي ومعاوية –رضي الله عنهما– ثم ما تبع ذلك من خلافات بين البيت الأموي والعلويين والزبيريين ، وانتهاء بموت الحَجَّاج، فكان رجلا محنكا استخلص العبر من تلك الأحداث، ليضع تصورا لما ينبغي أن يكون عليه الحاكم العادل، فمن رحم تلك المحن ولدت رسالته (صفة الإمام العادل) التي كتبها لعمر بن عبد العزيز بناء على طلبه، وتعد الرسالة من الرسائل الإخوانية التي اشتملت على الوعظ والتوصية " لذلك كانت أدخل في الأدب وأقبل للصور البيانية والصنعة البديعية، تحمل الاقتباس ..... فيها تنوع العبارة بين السهولة والجزالة، بريئة من التكلف والإغراب"[١] وانطلاقا من أن"

[١] الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، أحمد الشايب، ط٢ النهضة المصرية–القاهرة ١٩٨٨ ص١١٤.

تكون الأسلوب أهم المظاهر لبراعة الكتاب والشعراء، وأوضح معرض لقوة الإدراك ويقظة الشعور وجمال الذوق"[١] ، وباعتبار أن "الأسلوبية بلاغة حديثة ذات شكل مضاعف، ..... وأنها علم بلاغي" [٢] آثر البحث الدراسة الأسلوبية؛ ليكون عنوانه (صفة الإمام العادل للحسن البصري دراسة أسلوبية) حيث يقوم البحث بتحليل هذه الموعظة تحليلا أسلوبيا رابطا بين الصوت والدلالة، كاشفا عن معجم الحسن البصري الذي يستمد منه مفرداته بشكل يميزه عن غيره من الكُتّاب، مجليا خصائصها التركيبية والتصويرية.

تستمدّ هذه الدّراسة أهميّتها من كونها دراسة أسلوبية لنموذج من أدب إمام التابعين متمتع بالجودة الفنية، استمد منه الحاكم العادل عظته، فكان لها أبلغ الأثر.

وأمّا عن أسباب اختياره:

– جمال لغته، حيث تمنح الخصائص الأسلوبية موعظته فرادة في التعبير.

–شدة تأثيره في سامعيه وقارئيه.

–الحاجة إلى مثل هذه الدراسات التي تكشف عن لغة الكاتب وسماتها الصوتية، والمعجمية، والتركيبية، والتصويرية.

هدف البحث:

– الكشف عن الظواهر الأسلوبية في الرسالة، وما نجم عنها من طاقات تعبيرية

---

[١]) المرجع السابق، ص٤٨.

[٢]) الأسلوبية، بيير جيرو، ترجمة / د. منذر عياشي، ط٢ مركز الإنماء الحضاري –حلب ١٩٩٤م ص٩.

وإثراء للدلالة.

مشكلة البحث وتساؤلاته:

تتمثّل مشكلة البحث في بيان الظواهر الأسلوبية في موعظة الحسن البصري ، ومنها تتفرع عدة تساؤلات:

– ما الخصائص الصّوتية والمعجمية التي كونت أسلوبيته وميّزت موعظته؟

– كيف عبر عن موضوع موعظته من خلال البنية التركيبية؟ وما طرق التصوير التي وظفها لغرضه؟

– ما الظواهر الأسلوبية التي تجلت في موعظته أكثر من غيرها؟

منهج البحث:

تعتمد الدراسة على المنهج الأسلوبي ، لما يقدمه من أدوات إجرائية تنأى عن إطلاق الأحكام الذاتية، وتعين في كشف الأساليب الإبداعية، وهو منهج يتناول طرافة الإبداع، وجمال التشكيل اللغوي و طوابع التعبير الشخصية، إنه منهج يهتم بالظواهر اللغوية و الفنية بكافة خصائصها ومستوياتها، و ما تحققه هذه الظواهر من جمال و تميز.

خطة البحث:

يأتي البحث– بمشيئة الله تعالى– في مقدِّمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة، وثبت للمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات على النحو التالي:

– المقدمة: في أهمية الموضوع وأسباب اختياره ومنهجه وخطته.

– تمهيد: تعريف موجز بالحسن البصري – مفهوم المنهج الأسلوبي.

المبحث الأول: المستوى الصوتي.

المبحث الثاني: المستوى المعجمي.

المبحث الثالث: المستوى التركيبي:

(الاعتراض – الفصل والوصل – الحذف –التقديم –التناص–الإيجاز والإطناب– الخبر والإنشاء –التضاد).

المبحث الرابع المستوى التصويري:

–الصورة التشبيهية.

–الصورة الاستعارية.

الخاتمة: وتشتمل على التذكير بأهمّ ما تمّ إنجازه في هذا البحث، والنتائج التي توصّل إليها.

أسأل الله –تعالى– أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وأن ينفع به، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

تمهيد

أ-الحسن البصري:

هو "الحسن بن أبي الحسن يسار ، أبو سعيد ، مولى زيد بن ثابت الأنصاري ، ويقال مولى أبي اليسر كعب بن عمرو السلمي .....، وكانت أم الحسن مولاة لأم سلمة أم المؤمنين المخزومية، ويسار أبوه من سبي ميسان سكن المدينة وأعتق ، وتزوج بها في خلافة عمر، فولد له بها الحسن – رحمة الله عليه – لسنتين بقيتا من خلافة عمر واسم أمه خيرة، نشأ الحسن بوادي القرى ، وحضر الجمعة مع عثمان ، وسمعه يخطب ، وشهد يوم الدار وله يومئذ أربع عشرة سنة .كانت أم سلمة تبعث أم الحسن في الحاجة ، فيبكي وهو طفل ، فتسكته أم سلمة بثديها، وتخرجه إلى أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو صغير ، ..... ، فكانوا يدعون له ، فأخرجته إلى عمر فدعا له ، وقال : اللهم فقهه في الدين وحببه إلى الناس .قال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح من الحسن والحجاج . وعن الأعمش، قال: ما زال الحسن يعي الحكمة حتى نطق بها، وكان إذا ذكر الحسن عند أبي جعفر الباقر قال: ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء. مات الحسن في رجب سنة عشر ومائة. وقال عبد الله بن الحسن: إن أباه عاش نحوا من ثمان وثمانين سنة" [١].

[١]) سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة ٢٠٠١م ج٤ ص٥٦٤ وما بعدها (بتصرف)، وانظر وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق /إحسان عباس، دار صادر –بيروت ج٢ ص٦٩–٧٣.

شهد الحسن ما أحدق بالمسلمين من فتن وأحداث عظام توالت على الأمة الإسلامية منذ مقتل أمير المؤمنين عثمان –رضي الله عنه– وما كان من انقسام إلى طوائف وأحزاب ، وما شهد عصر بني أمية من سفك للدماء وتنكيل بالصحابة إلى أن جاء عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين، فوجدت الأمة في عصره مستراحا ، وتلقفه الناس وهم أشد ما يكونون حاجة إليه ، فلم يألُ الحسن جهدا في نصحه ، تمسكا به وإبقاء عليه ، فكان مما نصح به، ووعظ هذه الرسالة الخالدة التي تعد وثيقة مهمة لكل حاكم يرجو رضى الله ، وصلاح الرعية ، وإقامة الدولة المسلمة .وعليه فقد "أسهم الحسن مساهمة فعالة في توجيه الدولة إلى النظام المنشود الذي لا يختل أبدا إذا اتبع ، من خلال رسائله التي برز فيها اهتمامه بأمر الدولة والقائمين عليها" .[١]

[١]) الحسن البصري من عمالقة الفكر والزهد والدعوة في الإسلام (رسالة دكتوراه) مصلح سيد بيومي –كلية أصول الدين– جامعة الأزهر ١٩٧٣م، ص١١٥.

ب-الأسلوبية:

تعنى الأسلوبية بدراسة النص الأدبي ووصف طريقة الصياغة والتعبير، حيث هي نظرية نقدية تقدم أدوات منهجية لتحليل النص الأدبي من خلال طرائقه التعبيرية القائمة على اللغة عبر مستوياتها المختلفة: الصوتية والمعجمية والتركيبية والتصويرية وارتباطها جميعا بالدلالة.

وهي ليست ببدع من إنتاج الدراسات الغربية؛ فقد أسست لها بلاغتنا العربية منذ القدم،

فـــــــ" موضوع الأسلوبية عند بالي دراسة المضمون العاطفي والوجداني أو المستدعى. وهي تنتمي في النتيجة إلى البلاغة القديمة بما في ذلك صورها ونبرها وأساليبها " [١]

وقد عرفت الأسلوبية بأنها " دراسة الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب عن سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية والجمالية " [٢] وهو ما ترمي إليه البلاغة العربية من الإقناع والإمتاع، غير أنا في الدراسة الأسلوبية نبدأ من البذرة الأولى للتركيب وهو الصوت.

---

[١]) الأسلوبية، بيير جيرو، ص٥٦،٥٧ .

[٢]) انظر ص ١٦٧،١٦٨ من

Geoges Mounin :clefs pour la linguistique –paris ed.seghers.1968. نقلا عن: الأسلوبية المسدي ص٣٦

وتتوخى الدراسة الأسلوبية الوقوف على اختيارات المبدع التي تسم أسلوبه بسمات خاصة يتميز بها عن غيره، ويَنتُج عنها طاقات تعبيرية ومعان ثوان لها تأثيرها في المتلقي، ذلك أن "الأسلوب: طريقة خاصة للباث للخطاب اللغوي، وخاصة الكاتب والأديب في التعبير عن نفسه. وهو أن تضيف إلى فكر معين جميع الملابسات الكفيلة بإحداث التأثير، ومن زاوية الخطاب هو الطاقة التعبيرية الناجمة عن الاختيارات اللغوية" [١]

"وكلمة أسلوب تساعدنا بلا شك على إظهار الوضع الذي يتخذه المنشئ بالنسبة للمادة اللغوية التي أسلمتها له لغته الأم، كما أنها تحدد الموقف الذي يتخذه هذا المبدع من طريقة الأداء وربط الدوال بمدلولاتها" [٢] ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل يتجاوزه إلى إبراز عاطفته، ومقاصده، وجماليات تعبيره وما تحدثه من أثر نفسي واجتماعي؛ فـــــ" معدن الأسلوبية حسب (بالي) ما يقوم في اللغة من وسائل تعبيرية تبرز المفارقات العاطفية والإرادية والجمالية بل حتى الاجتماعية والنفسية " [٣] وسنلاحظ في الرسالة موضوع الدراسة، كيف أحسن المبدع اختيار أصواته ومفرداته وتراكيبه وصوره، ولاءم بينها وبين موضوع الرسالة بغية إثارة المتلقي

[١]) النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، عدنان ذريل، منشورات اتحـــاد العـــرب ٢٠٠٠م ص٤٣، ٤٤.

[٢]) البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب، ط١ مكتبة لبنان ناشرون –بـــيروت، الشـــركة المصرية العالمية للنشر لونجمان –الجيزة ١٩٩٤م ص١٩٠.

[٣]) الأسلوبية، المسدي ص ٤١.

ليعمل بمضمون العظة، وبالتالي يمتد تأثيرها إلى المجتمع المسلم "فإن غائية الحدث الأدبي تكمن في تجاوز الإبلاغ إلى الإثارة".[١]

[١]) الأسلوبية، المسدي ص٣٥.

صفة الإمام العادل

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه الحسن رحمه الله: "اعلم يا أميرَ المؤمنين أن اللهَ جعل الإمامَ العادل قوامَ كل مائل، وقصدَ كلِّ جائر، وصلاحَ كل فاسد، وقوةَ كلِّ ضعيف، ونصفة كلِّ مظلوم، ومفزعَ كلِّ ملهوف، والإمامُ العدلُ يا أميرَ المؤمنين كالراعي الشفيقِ على إبلِه، الرفيق الذي يرتادُ لها أطيبَ المرعى، ويذودُها عن مراتعِ الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنفُها من أذى الحرِّ والقر[1]، والإمامُ العدلُ يا أميرَ المؤمنين كالأبِ الحاني على ولدِه، يسعى لهم صغارا، ويعلمُهم كبارا، يكتسبُ لهم في حياتِه، ويدخرُ لهم بعد مماتِه، والإمامُ العدلُ يا أميرَ المؤمنين كالأمِّ الشفيقةِ، البرة الرفيقة بولدِها، حملتْه كرهًا، ووضعته كرهًا، وربَّته طفلًا، تسهرُ بسهرِه، وتسكنُ بسكونِه، ترضعُه تارة، وتفطمُه أخرى، وتفرحُ بعافيته، وتغتمُّ بشكايته، والإمامُ العدلُ يا أميرَ المؤمنين وصيُّ اليتامى، وخازنُ المساكين، يربي صغيرَهم، ويمونُ[2] كبيرَهم، والإمامُ العدلُ يا أميرَ المؤمنين كالقلبِ بين الجوانح، تصلحُ الجوانحُ بصلاحِه، وتفسدُ بفسادِه، والإمامُ العدلُ يا أميرَ المؤمنين هو القائمُ بين اللهِ وبينَ عبادِه، يسمعُ كلامَ اللهِ ويُسمِعُهم، وينظرُ إلى الله ويُريهم، وينقادُ إلى الله ويقودُهم، فلا تكن يا أميرَ المؤمنين فيما ملَّكك اللهُ كعبدٍ ائتمنه سيدُه، واستحفظه مالَه وعيالَه، فبدَّد المال، وشرَّد العيال، فأفقرَ أهلَه، وفرَّق مالَه، واعلم يا

---

[1]) القر: البرد (لسان العرب /قرر)

[2]) مانَ الرجلُ أَهله يَمُونُهُمْ مَوْناً ومَؤُونةً: كَفَاهُمْ وأَنفق عَلَيْهِمْ وَعَالَهُمْ (لسان العرب /مون).

أميرَ المؤمنين أن اللهَ أنزل الحدودَ ليزجرَ بها عن الخبائثِ والفواحشِ، فكيف إذا أتاها من يليها؟ وأن الله أنزل القصاصَ حياةً لعبادِه، فكيف إذا قتلهم من يقتصُّ لهم؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموتَ وما بعدَه، وقلةَ أشياعِك عندَه، وأنصارِك عليه، فتزوَّد له، ولما بعده من الفزعِ الأكبر. واعلم يا أمير المؤمنين أن لك مترلًا غير مترلِك الذي أنت فيه، يطولُ فيه ثواؤُك [١]، ويفارقُك أحباؤُك، يُسلمونك في قعرِه فريدًا وحيدًا، فتزود له ما يصحبُك يوم يفرُّ المرءُ من أخيه، وأمِّه وأبيه، وصاحبتِه وبنيه، واذكر يا أمير المؤمنين إذا بُعثر ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور، فالأسرارُ ظاهرة، والكتابُ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، فالآن يا أميرَ المؤمنين وأنت في مَهَل، قبل حلولِ الأجل، وانقطاعِ الأمل، لا تحكمْ يا أمير المؤمنين في عبادِ الله بحكمِ الجاهلين، ولا تسلُكْ بهم سبيلَ الظالمين، ولا تسلِّط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلًّا [٢] ولا ذمة، فتبوء بأوزارِك، وأوزارٍ مع أوزارك، وتحمل أثقالَك، وأثقالًا مع أثقالِك، ولا يغرَّنَّك الذين يتنعمون بما فيه بؤسُك، ويأكلون الطيباتِ في دنياهم بإذهابِ طيباتِك في آخرتِك، لا تنظر إلى قدرتِك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتِك غدا، وأنت مأسورٌ في حبائلِ الموت، وموقوفٌ بين يدي الله في مجمعٍ من الملائكةِ والنبيين والمرسلين، وقد عنت [٣] الوجوهُ للحيِّ القيوم، إني يا أمير المؤمنين

[١]) الثَّواءُ: طولُ المُقام (لسان العرب / ثوى)
[٢]) الإل: الحِلف والعهد (لسان العرب /ألل)
[٣]) خضعت (لسان العرب / عنا)

وإن لم أبلغْ بعظتي ما بلغه أولو النهى من قبلي، فلم آلُكَ [١] شفقةً ونصحًا، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبِه، يسقيه الأدويةَ الكريهة، لما يرجو له في ذلك من العافيةِ والصحة، والسلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته." [٢]

[١]) لم أقصر (لسان العرب/ ألو)

[٢]) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق محمد سعيد العريان، ط٢ المكتبة التجارية الكبرى –القاهرة 1953 م – ١٣٧٢هـ ١/٢٥ ، آداب الحسن البصري وزهده ومواعظه لابن الجوزي ،تحقيق /سليمان الحرش ط١ دار الصديق –دمشق ، بيروت ٢٠٠٥ م ص 114، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (العصر الأموي)، أحمد زكي صفوت ،ط١ الحلبي–مصر ١٩٣٣م ،ص ٤٧٦ خطبة رقم ٤٦١.

المبحث الأول: المستوى الصوتي

١-البناء الصوتي:

يرتكز البناء الصوتي على التكرار بأنواعه المختلفة (اللازمة، والجناس، والأصوات) على نحو مطرد، وينجم هذا التكرار المطرد عن "إسقاط مبدأ التماثل من محور الاختيار على محور التأليف، بما يؤدي إلى خلق بنية من التوازي [١] من خلال التماثلات" [٢] ونسيجه يحدد النغمة الموسيقية للنص .

ولعل اللازمة تشكل المرتكز الموسيقي في هذه الرسالة، بتكرارها سبعًا (والإمام العادل يا أمير المؤمنين) وإذا ما استثنينا (الدال والهمزة) فإن هذه اللازمة تتألف من أصوات مؤتلفة (ل، م، ر، ن) أي متقاربة من حيث الخصائص (النطقية والأكوستيكية).

فهي تتقارب في مواضع نطقها (ومخرجها اللثة)، وطريقة نطقها (أصوات

---

[١]) في النثر الوحدات الدلالية ذات الطاقة المختلفة هي التي تنظم بالأساس البنيات المتوازية، وفي هذه الحالة يؤثر توازي الوحدات المترابطة على أساس المشابهة أو التباين أو المجاورة بشكل فعال على بناء الحبكة وعلى تخصيص ذوات الفعل ومواضيعه وعلى انسياب التبعات السردية (قضايا الشعرية، ياكبسون ١٠٨)

[٢]) قضايا الشعرية. رومان ياكبسون، تر/ محمد الولي ومبارك حنوز، ط١دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ١٩٨٨، ص٤٦-٥٠.

استمرارية)، كما تتسم بالخفة الواضحة، إذ لا تحتاج إلى جهد عضلي زائد لنطقها، فهي من أصوات الذلاقة بتصنيف ابن جني [١] ، والذلاقة تعني "القدرة على الانطلاق في الكلام بالعربية دون تعثر أو تلعثم، فذلاقة اللسان كما نعلم جودة نطقه وانطلاقه في أثناء الكلام" [٢] بالإضافة إلى أنها تتسم أكوستيكيا بالعلو الصوتي والوضوح السمعي، ذلك أنها من أكثر الأصوات العربية علوا صوتيا، ووضوحا سمعيا بعد الحركات. وبالتالي ينعقد التناسب بين أصوات اللازمة لشدة تقاربها، ونظرا لتكرارها في الرسالة فإنها تعد مرتكزا إيقاعيا ونغميا، فتسم الرسالة إيقاعا بالخفة والسلاسة ونغما بالعلو الصوتي والوضوح السمعي. وبما أن الميم والنون من الأصوات المؤنفة فإنهما يكسبان النغمة الموسيقية ترنيمة واضحة.

ويُعضَّد هذا التركيب الصوتي بتكرار أصوات الذلاقة في الأثناء، حيث تكررت الراء سبعا وسبعين مرة [٣]، تليها العين خمسين مرة، والعين وإن لم تكن من أصوات

---

[١]) سر صناعة الإعراب، ابن جني، تحقيق/حسن هنداوي، ط١ دار القلم –دمشق ١٩٨٥م ٦٤/٢ .

[٢]) الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ط ٤ الأنجلو المصرية ١٩٩٩م ص٩١.

[٣]) تنطلق الأسلوبية الإحصائية من فرضية إمكان الوصول إلى الملامح الأسلوبية للنص عن طريق الكم، وتقترح إبعاد الحدس لصالح القيم العددية .... ولها مزاياها فهي تعمل على تخليص ظاهرة الأسلوب من الحدس الخالص وتوكل أمرها إلى حدس منهجي موجه، ومن هذه الزاوية يمكن للإحصاء أن يكمل مناهج أسلوبية أخرى بشكل فعال . (البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، هنريش بليت ، تر/ د. محمد العمري ، أفريقيا الشرق – المغرب ، بيروت ١٩٩٩م ص٥٨–٦٠)

الذلاقة، إلا أنها تتوافق معها من حيث إنها صوت مجهور احتكاكي بيّن الوضوح والعلو الصوتي.

هذا بالإضافة إلى تكرار اللام، جناسا وسجعا مما يجعلها لافتة، وأساسا في النسيج الصوتي :(واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال، وشرد العيال، فأفقر أهله، وفرق ماله)، (وأنت في مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل)

وقد راوح المبدع بين استعمال السجع وتركه ، ولم يتكلفه؛ لذا فإن ما جاء من النص مسجوعا كان حسن الوقع ،مستطابا في السمع، وانتهاء الفواصل المسجوعة إلى أمد بعينه يعكس سيطرة المرسل على انفعالاته ، ويحدث تأثيرا في نفوس سامعيه من مثل قوله :(يسعى لهم صغارا، ويعلمهم كبارا، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته) ،(يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم)، (يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم) ،(فبدد المال، وشرد العيال) ،(واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده) ،(يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك) ،(فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور) ،(فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مَهَل، قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين) ويغلب عليه السجع القصير المتساوي الفقرات الذي يدل على قوة المنشئ وتمكنه من الصياغة ، ويحافظ على ما قدر المتلقي ويبقي على توقعه من انتهاء الفقرة عند حد معين يقف عنده ؛ليستوعب ما حوته الفقرة ، ويضعه في حيز

التنفيذ تأثرا بما تركه الوقع في نفسه.

والفواصل المنتهية بصوت صامت قبله مد مثل (المال، العيال) و (الجاهلين، الظالمين، المستضعفين) فيها يمتد صوت المرسل –وفيه إعلام للمرسل إليه– ليلتقي بالصوت الصامت أو السكون، فيسكن أعماق المتلقي.

وانتهاء الفاصلة بألف المد مثل (صغارا، كبارا) و (كرها) يتميز بشدة الوضوح السمعي المتأتي من إشباعها بالصوت المدِّي الذي يلفت انتباه المتلقي، فيوقظ همته للعمل بالعظة وتطبيقها.

غير أن النسيج الصوتي لا يجري على سمت واحد، فإذا أخذنا التكرار المرتكز على الجناس، فإن من الأصوات ما يخلخل البناء الصوتي المتسم عموما بالخفة والسلاسة، وذلك لتكرار الأصوات الصفيرية (س، ص، ز): (تسهر بسهره، وتسكن بسكونه)، (تصلح الجوانح بصلاحه، وتفسد بفساده) ،(يسمع كلام الله ويسمعهم)، (ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين) ، (فتبوء بأوزارك، وأوزار مع أوزارك).

فـ"أصوات الصفير من الأصوات الخشنة والمضطربة؛ لأن موجتها الصوتية غير منتظمة " [١] وهي وإن كانت تتسم بالحركية العالية إلا أنها حركة مضطربة، هذا بالإضافة إلى ما تتسم به من العلو الصوتي الناتج عن اضطراب موجتها. كما أنها تبتعد عن السلاسة النطقية ، ولا تتيح الطلاقة والانطلاق في الكلام .

[١]) الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية، سمير شريف استيتية، ط١ دار وائل –عمان ٢٠٠٢ م ص١٦٥.

وثمة أصوات في اللغة لها خصوصية ، فتكون لافتة ويؤثر نغمها في الإيقاع الصوتي والنغمة الموسيقية في المواضع الواردة فيها ، ونقصد الأصوات المفخمة، إذ إن لها تأثيرا من الناحيتين النطقية والأكوستيكية، فمن الناحية النطقية "تحتاج إلى جهد عضلي زائد لإنتاجها" [١]، ومن الناحية الأكوستيكية تتسم بالوضوح السمعي ذلك أن "للجهد العضلي الزائد أثرا في زيادة أثر الوضوح السمعي حتي أن الصوت المفخم يكون أوضح سمعيا من نظيره المرقق" [٢] وبذلك فإن الصاد تتضاعف صعوبتها النطقية واضطرابها الأكوستيكي وعلوها الصوتي قياسا إلى نظائرها من الأصوات الصفيرية .

ومن الأصوات المفخمة الواردة على نحو له أثره في النسيج الصوتي، صوت القاف: الشفيق –الرفيق ، الشفيقة – الرفيقة ،وينقاد ويقودهم ،وتحمل أثقالك، وأثقالا مع أثقالك) فالقاف صوت طبقي مهموس مفخم يستلزم جهدا عضليا زائدا لنطقه ،ويتسم بالوضوح السمعي .

ولا يقتصر التفخيم على الأصوات المفخمة، إنما هناك تفخيم موضعي للأصوات غير المفخمة بحكم تأثير الجوار، مثل تفخيم الشين (الشفيق) والراء (الرفيق) والدال (ينقاد ويقودهم) واللام (تصلح بصلاحه).

وعلى أساس من التقابلات الصوتية بين أصوات الذلاقة وأصوات الصفير، وبينهما وبين الأصوات المفخمة، يتسم النسيج الصوتي بالمراوحة بين الخفة والشدة،

---

[١]) الأصوات اللغوية ، سمير استيتية ص١٤٣.

[٢]) السابق ، ص ١٧٤.

والرقة والغلظة، والسلاسة والصعوبة، والحركية والاضطراب، وإن كانت الغلبة للإيقاع الخفيف السلس نظرا لعلو تكرار أصوات الذلاقة وصوت العين.

أما النغمة الموسيقية فتتسم بالعلو والوضوح دون مراوحة.

٢-التوافق اللغوي والإيقاع الصوتي (الصوت والدلالة):

يرتكز تماسك النص على بنائه الصوتي، من حيث ينبني النسق الصوتي على التوازي والتقابل، لكن هذا التماسك الصوتي لا يكون له وزن يعتد به إن لم يعضده تماسك بين الأنساق البنيوية للنص وتحديدا النسقين الصوتي والدلالي، فتواصل النص، ومن ثم امتلاؤه يكمن فيما تحدثه الأصوات من نسق مع المعنى، أي بالانسجام بين البنية الصوتية والبنية الدلالية، بحيث يكون الصوت وجه المعنى، والمعنى الوجه الآخر للصوت، ويتحقق في النص درجة عالية من التماسك النصي، بما يتحقق من توافقات بين الأصوات والدلالة.

ويتضح التوافق بين الصوت والدلالة في تكرار اللازمة (والإمام العدل يا أمير المؤمنين) فهي لازمة قبلية مؤسسة لما يأتي بعدها ، فالتكرار محور مركزي تبنى عليه تفريعات الدلالة من خلال الإضافة الجديدة في كل مرة ، فيتجاوز الناحية الموسيقية إلى بناء محاور الموعظة ، وتلك قيمة دلالية أعمق ، وتؤسس هذه اللازمة لما ينبغي أن يكون عليه الإمام العدل في كل مقطع وعظي، إذ يبني عليها في كل مرة سمة ينبغي أن يتسم بها ، كما أن فيها فائدة التنبيه بما تحويه من نداء(يا أمير المؤمنين) والنداء إنجاز لفعل الإقبال ،وتهيئة للتلقي ، وفيها حث على ضرورة التحلي بالعدل وأنه لا يتم إلا بتطبيق ما يأتي بعد اللازمة في كل مرة ، فتكرارها سبع مرات مرتبط

بالدلالة مُثرٍ لموسيقى النص، فضلا عما لها من دور في تحقيق التماسك النصي ذلك أن " التكرار يمنح المرسل قدرة كبيرة على خلق صورة لغوية جديدة ، ويسمى التكرار المتصل، ويرمي إلى جعل التواصل والنص متينا متماسكا ، ما دام اللفظ المكرر وثيق الصلة بالمعنى" [١]

وفائدة التنبيه تتآلف مع النسيج الصوتي من حيث توارد الأصوات ذات النغمة العالية لما في أصوات الذلاقة من علو صوتي ووضوح سمعي، بالإضافة إلى صوتي المد (الياء والألف) اللذين يعطيان الإيقاع امتدادية، وهذا مما يحدث نسقا مع المعنى الذي تؤسس له اللازمة وتنبه عليه وهو العدل؛ ذلك أن من مقتضيات العدل الرقة والليونة في التعامل والتمهل في إجراء الأمور والنظر فيها.

وإذا كانت حروف المد إعلامية، فقد تنوع الإعلام من خفيف (الألف) إلى قوي متوسط (الياء) وهذا التدرج التصاعدي يخدم الوعظ، ويزيد في جذب المخاطب واستقطاب حواسه.

أما عن صوت الميم: فهو صوت "شفوي مجهور متوسط بين الشدة والرخاوة له صفة الإطباق، ويوحي بالليونة والمرونة" [٢] ، وقد تكرر في عبارة اللازمة (إمام، أمير المؤمنين) خمس مرات؛ ليشكل دلالة الإحاطة بالرعية والحفاظ عليها، واحتوائها

---

[١]) المعاني (دراسة في الانزياح الأسلوبي) د. عزة محمد جدوع، ط٢ مكتبة المتنبي ٢٠١٧م، ص٢١٥

[٢]) خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس، منشورات اتحاد العرب دمشق ١٩٩٨م، ص ٧١ بتصرف.

إحاطة الشفتين بما بداخلهما واحتواءهما له، فليضم الراعي رعيته وليحمهم، ولا يسمح بنفاذ أي مكروه إليهم كما أن إطباق الشفتين والتقاءهما عند النطق بصوت الميم لا يسمح بتسرب الهواء، وليلن لهم جانبه، في مرونة ممتدة، ففي صوت الميم محاكاة للمعنى.

كما يتضح التوافق بين الصوت والدلالة أيضا في سيطرة بعض الأصوات التي لها صفات وخصائص تتناغم مع الدلالة في غير عبارة اللازمة:

فقد تكرر صوت (الراء) سبعا وسبعين مرة وهو صوت لثوي مجهور تكراري منطلق، "لا يحدث إلا بطرقات عدة يقوم بها طرف اللسان على حافة الحنك الأعلى".[١]

وسيطرة هذا الصوت تشكيل دلالي لصورة تردد الراعي على الرعية، ومتابعته مصالحهم، وتفقد أحوالهم، وانطلاقه وسعيه في شؤونهم، ودوام المعاودة والتكرار لهذه الأمور على نحو قوي واضح، فلا يخفى عليه شيء من شؤونهم، ولا يخفى على المرعي متابعته له، إن هذا الصوت "قد قدَّم للعربي الصور الصوتية المماثلة للصور المرئية التي فيها ترجيع وتكرار" .[٢]

فصوت واحد تمكن من نقل البنية الدلالية الكبرى للنص، فضلا عما أفاده من إيقاع موسيقي.

---

[١]) البنى الأسلوبية دراسة في أنشودة المطر للسياب، حسن ناظم، ط١ المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء –المغرب ٢٠٠٢م ص١٠٢.

[٢]) خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص ٨٣.

يأتي بعد (الراء) من حيث التكرار في النص صوت (العين) فقد تكرر خمسين مرة وهو "صوت حلقي مجهور احتكاكي ميزه الخليل بالنصاعة (الوضوح والبيان)"[١] يدل صوت العين بتوسطه بين الشدة والرخاوة ، وترددیته الناتجة عن تردد لسان المزمار في الحلق على أن يعامل الحاكم الرعية معاملة تتميز بالوسطية لا الشدة المطلقة ولا اللين المتسيب، وأن يتردد عليهم، وقوة إسماعه العليا مع عمق مخرجه الحلقي توحي بقوة في الحرص والمتابعة، وصدورهما عن عمق قناعة بهما "لا بد لصوته[العين] النقي الناصع أن يوحي بالفعالية والإشراق والظهور والسمو" [٢] فعالية الإمام ، وإشراق عدله ، وظهوره وسموه حين يترفع أن يضع نفسه في عداد الحكام الجائرين، وبما أن حرف العين "رعوي" [٣] فهو ألصق بمعاني الرعاية والصون وارتياد المصالح التي يجب على الحاكم معاملة الرعية بها.

إن اختيار صوتي (الراء والعين) يعطيان من الصفات المطلوبة في الإمام صفة القوة والوضوح، ويجعلان النص من النصاعة بمكان، وثمت توافق بين الصوتين أيضا في خاصية التكرار "وإن دلّ التوافق في هذه الخاصية بين العين والراء على شيء، فإنما يدل على أن العربي قد لفظ صوت العين مشدداً عليه مع شيء من التواتر والتكرار

[١]) لسان العرب، مادة (عين).

[٢]) خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص ٢٠٩.

[٣]) نشأ بين رعاة الإبل في البادية، ويغلب استعماله فيما يتصل بالرعي (خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص ٢٢١).

(ع، ع، ع) قريباً مما لفظ صوت الراء" [١] وفي الفقرة الأولى من النص يلاحظ غلبة صوتي العين والفاء، وهما من الأصوات الاحتكاكية الرخوة التي تسمح بمرور الهواء أثناء النطق بها؛ لذا يشكل اختيارهما دلالة مرونة الراعي في التعامل مع الرعية، فلا يعاملهم بالشدة المطلقة التي تنفرهم وتفسد العلاقة بينه وبينهم، وإنما يسمح بتمرير ما لا يضر .

وعلى ما تبين أعلاه يراوح النسيج الصوتي بين بنيتين متقابلتين، فيما ظهر من تقابل بين الأصوات الخفيفة في العربية (أصوات الذلاقة، والعين، واللين، والمد) من جهة، وأصوات الصفير والأصوات المفخمة من جهة ثانية.

أما من حيث النغمة العالية فلا تقابل بين هذه الأصوات، إنما هي متوازية من حيث هذه الصفة، بما يعطي النص عموما نغمة ترنيمية عالية، تتوافق مع عظمة إقامة العدل والتشديد عليه.

ومن جانب آخر تتسم هذه الأصوات (أصوات الصفير) بالشدة والصعوبة واضطراب الحركة، ولعل هذا يتوافق مع المعنى العام من حيث ما تتطلب إقامته من بذل الجهد والمشقة، أي أن الجهد والمشقة المبذولين في نطق مثل هذه الأصوات وما تثيره من إيحاءات نفسية متوافق مع الجهد والمشقة في إقامة العدل.

[١]) خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص٢١٦.

المبحث الثاني
المستوى المعجمي

1-المعجم الديني: يأتي المعجم الديني في المقام الأول في نص الرسالة، فاقتباسه من القرآن وتناصه مع آياته في مواضع كثيرة جعل المعجم الديني هو معجمه الأول الذي يستمد منه مفرداته.

اسم الله وصفاته: ذكر اسم الله وصفاته يضفي القدسية على العظة ، ويحث على امتثالها، وتطبيقها؛ إذ تأمر بما أمر الله به، وما أنزله في كتابه، فهو يستمد في وعظه من المشرع الأول ومن الدستور الذي لا يرد تشريعه، يستمد من سلطة عليا، لا يملك المتلقي أمامها إلا السمع والطاعة (أن الله جعل الإمام ..، القائم بين الله وعباده ،يسمع كلام الله ، ينظر إلى الله ، ينقاد إلى الله ، ملكك الله ، أن الله أنزل الحدود ،وأن الله أنزل القصاص ،لا تحكم في عباد الله ..، موقوف بين يدي الله، وعنت الوجوه للحي القيوم ، ...ورحمة الله) إذن هو يصبغ عظته بصبغة الله التي تجعلها أولى بالقبول والتلقف، ويستمد قوتها من سلطانه الأعظم .

وفي سياق قوله (ولا تكن فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده) ذكره للفظ الجلالة تذكير وتنبيه له بأن الملك لله ليس لك أيها الأمير، وأما أنت فمؤتمن عليه ووكيل فيه، فلا يغرنك ما بين يديك، فتستبد في التصرف فيه.

وفي قوله (لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين) إضافة العباد إلى الله نص على أن الحاكم ليست له السلطة المطلقة في الحكم على من وُلي عليهم، فهم عباد الله لا عبيد الحاكم، فلتتذكر أيها الحاكم أنك بتسلطك عليهم تغضب وليهم

الأعظم سبحانه.

وفي ذكر اسم الله في قوله (وموقوف بين يدي الله) استحضار للرهبة والجلال؛ ليستشعر المتلقي هول الموقف وخطره، فيجتنب ما يمكن أن يخزيه في هذا الموقف، بل يحرص على أن يقدم ما يعزز موقفه وينير صحائفه.

الزواجر:

الحدود: (واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها؟) المخاطب هو ولي الأمر الذي يتولى تنفيذ الحدود فيمن يقترف الخبائث، ويرتكب الفواحش، فما الخطب إذا أتاها؟ سينتشر الفحش وتعم الفوضى، وتغيب المحاسبة، وتضيع حدود الله، فيحمل أوزاره وأوزار الرعية الذين اقتدوا به في إتيانها.

إذن استعمل (الحدود) ليوقع في نفسه دوام تعظيمها، والحرص على ألا يقربها؛ ليستقيم أمر الأمة، وتنضبط أحوالها، وتُعظم حدود الله، فلتأتمر نفسك أولا بأمر الله حتى تتبعك الرعية، وهكذا استثمر المعنى المعجمي للحد: المنع ؛ ليمنع الراعي نفسه أولا ، فتقتدي به الرعية.

القصاص :(وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟) استعمل مفردة (القصاص) في هذا السياق لما يحمل من الحياة المنصوص عليها مفعولا لأجله للفعل (أنزل)، إذ يزجر من يقدم عليه فتتحقق الحياة للطرفين: من ينوي القتل، والمنوي قتله، وقد جعل الله القصاص مسؤولية ولي الأمر، فلا يتسلط عليهم بأن يقتلهم بدلا من الحرص على حياتهم، أي أنت مكلف بالحفاظ على حياتهم ،

وتطبيق عليك الموت، بعد أن كنت ذا القدرة والهيمنة في الدنيا، انظر إلام يؤول أمرك؟ وظف مفردة الموت لتشكل دلالة تناهي ضعفه، إذ وضع الموت نهاية لكل ما كان يتمتع به من قوة، فلا تغتر بقوتك اليوم فمآلها إلى الضعف غدا حين تكبلك سلاسل الشرائع التي تكفل لهم ذلك ، فهل يُعقل أن تحرمهم أنت حق الحياة، أنت ملجأهم في طلب الحقوق فماذا إذا كنت المستولي عليها ؟!!

اليوم الآخر:

الموت :(واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده) ذكر مفردة (الموت) ليشكل دلالة انتهاء نعيم الدنيا وزواله، فالموت يعني النهاية لكنها ليست نهاية مطلقة، إذ تبدأ به منازل الآخرة.

ويتبع السياق (وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه) يذهب الأصدقاء والبنون والأولياء والمحبون، وتبقى وحدك، بعد أن كنت صاحب السلطان يصبح الموت سلطانا عليك (وأنت مأسور في حبائل الموت) فاحرص على التزود له من دنياك.

وجاء الموت بغير لفظه في قوله (فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مَهَل، قبل حلول الأجل) أي اغتنم الفرصة قبل الموت، وأقم العدل بين العباد، وانتصف من المستكبرين للمستضعفين، فإنه إذا حل فاتك استدراك ذلك، وتحملت وزره.

(ولكن انظر إلى قدرتك غدا، وأنت مأسور في حبائل الموت) انظر إلى ضعفك حين يسيطر الموت وحبائله، وتحكم سيطرتها عليك فلا تملك تصرفا.

القبور :(واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك) المقصود بالمنزل الذي تطول فيه الإقامة هنا (القبر) الذي تخلد فيه وحيدا، لا

أنيس ولا جليس ولا مغيث إلا العمل، فتزود منه ما يزيل وحشتك، ويؤنس وحدتك، ويغيثك من هوله، فالقبر دفن ومواراة لكل ما كان من قبل.

(واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر ما في القبور) يستخدم مادة (قبر) جمعا في سياق الحديث عن البعث ونشر صحائف الأعمال، ما كان قد قُبر مع أصحابه سيظهر، والأسرار ستنتشر، يستعمل مفردة (القبور) في السياق المضاد لمعناها المعجمي سياق الإظهار والإفشاء، ليوضح الصورة بالتضاد، فما كان مدفونا مقبورا يؤول إلى الانتشار، وتتكشف الأعمال والأسرار.

الفزع الأكبر: (فتزود له، ولما بعده من الفزع الأكبر) يستخدم مفردة (الفزع) موصوفة بـ(الأكبر) لتناسبها مع الحث على اتخاذ الزاد والعدة من العمل الصالح في الدنيا ليكون وقاية من الهول، والتخويف مدعاة الاستعداد وشحذ الهمم للتوقي، فتبذل النفس أقاصي جهودها، وتأتي بأطيب ما عندها، فتقدمه ليكون أمانا لها من الفزع.

الأوزار: (ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك، وأوزار مع أوزارك) هذه المفردة، وتكرر مادتها تشكيل لدلالة ثقل الحمل، وعظم المسؤولية، وخطورة التبعات، فاحرص على التخلص منها ليخف حملك، ولا يطول حسابك.

"والوزر: الجبل المنيع " [١] فكأن في الأوزار ثقل الجبال، فاجتنب ما يجلبها إليك، واحذر ما يضاعفها عليك.

---

[١]) لسان العرب مادة (وزر).

(وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين)استعمل مفردات (الملائكة ،والنبيين، والمرسلين) في هذا الموقف الذي تتلاشى فيه قدرة الإنسان ويهيمن موقف الحساب، بين يدي الله وعلى رؤوس الأشهاد، وفي مقدمتهم الملائكة والنبيين والمرسلين، فليحسب حسابا لهذا الموقف، لئلا يخزى ويخجل أمام الله وملائكته وأنبيائه ورسله، فمن عادة الإنسان أن يخجل من الفعل القبيح أمام كبار القوم–ولله وملائكته ورسله وأنبيائه المثل الأعلى– فاستثمر المبدع هذا في مجال الوعظ، والحث على العمل على حسن الموقف، وتزيين المشهد في الآخرة.

وهكذا تتضح ملاءمة المفردات الدينية لغرض الرسالة الوعظية، ومناسبتها لأداء الغرض المسوق له الكلام.

2–معجم الطبيعة:

يحتل معجم الطبيعة المركز الثاني في استعمال مفرداته بعد المعجم الديني في الرسالة، حيث تتوالى الصور التشبيهية التي تؤطر للحاكم وعلاقته بالرعية ، فيعرض صورة الراعي مرة ، والأب مرة ثانية ، والأم مرة ثالثة .

المرعى : يستعمل حقل المرعى بما فيه (الراعي ، والإبل ، والمرعى) وعلاقة الثلاثة بعضها ببعض ، الراعي يقود إبله إلى أطيب المرعى ويحميها من الهلاك ، ويدفع عنها أذى الحر والبرد، فليكن الحاكم مع محكوميه على هذا النحو من الشفقة والرفق والإحساس بالمسؤولية عن حمايتهم، وتحذيرهم مما يوردهم موارد الهلاك، والاجتهاد في تقديم أطيب ما عنده لهم، فإن لم يكن عنده يعمل على تحصيله لهم، فمادة (رعى) تدل على التعهد بالحفظ والصون من الضياع، بما في ذلك الطعام والمأوى ،

والمرعى: المكان الذي يزود الكائن بما يحفظه، ويؤمِّن ما تقوم به الحياة والسلامة والحفظ كالمأوى والغذاء والأمن، لذا دلل بها المبدع على مسؤولية الرعاية والحفظ المنوطة بالحاكم.

لم يقتصر الحسن على مفردة (رعى) وإنما أردفها بما يؤكد مهام الراعي ومتطلبات الرعاية من توفير الغذاء والمأوى والأمن والحماية على مختلف مستوياتها: من السباع، ومن الهلاك، ومن عوامل الطبيعة وظروف المناخ من حر وبرد ونحوهما، فينبغي على الحاكم إذا أراد أن يحقق العدل أن يكفل للرعية غذاءهم ومأواهم وحمايتهم وحفظهم ....

الأب: (والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغارا، ويعلمهم كبارا، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته) اختار مفردة الأب ليعبر عن معنيي المسؤولية والحنو اللذين ينبغي توافرهما في الإمام تجاه رعيته، يعمل لأجلهم، يحنو عليهم، يدبر أمورهم، ليست المسؤولية التي ليس فيها إلا الإحساس بالعبء والثقل، بل المسؤولية الحانية، والسعي بلا كل ولا ملل، وشمول الجميع: الصغير والكبير، القوي والضعيف، والحرص على راحتهم حاضرا ومستقبلا.

الأم :(.. .كالأم الشفيقة، البرة الرفيقة بولدها، حملته كرها، ووضعته كرها، وربته طفلا، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته) تأتي مفردة الأم ليلحق بها الإمام العدل في صورة ترسم ما هو منوط به من رفق ورعاية ، وتحمل للمشاق من أجل رعيته، فالأم هي مقصد وملجأ أطفالها، هكذا ينبغي أن يكون الإمام مقصد الرعية في كل أمورهم، يتعب

لتعبهم، ويرتاح براحتهم، لا تقر عينه، ولا يذوق جفنه النوم إلا إذا اطمأن أنهم مكفيون في غير حاجة، يشاركهم أفراحهم وأحزانهم، لا يضجر من مشاق الرعاية لأن هدفه إسعادهم.

العبد والسيد :(فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال، وشرد العيال، فأفقر أهله، وفرق ماله) يصغر أمر أمير المؤمنين بعرضه في صورة العبد ائتمنه سيده (المولى عز وجل) على المال والعيال (الملك والخلق).

ينصحه بألا يكون ذلك العبد الخائن الذي ضيع الأمانة، إذ بدد المال، وشرد العيال، أي أنت مؤتمن على الملك والخلق من قبل الخالق –سبحانه– ليس لك من الأمر شيء، لا فضل لك فيما تحت ملكك، فلتحسن التصرف فيما اؤتمنت عليه، فالغرض من استخدام مفردة (العبد) تصغير شأنه عند نفسه؛ حتى لا يغتر بما ملك، فيستبد فيه.

3–المعجم الطبي:

هو أقلها استعمالا وقد جاء في قوله (فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه، يسقيه الأدوية الكريهة، لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة) ما حوى الكتاب من توجيهات يعد عبئا على النفس إلزامها به، يشبه الأدوية مرة المذاق، تشرب رجاء التعافي، وطلبا للصحة والسلامة، فلتتحمل إلزام نفسك بها طلبا للسلامة من التبعات في الآخرة ورجاء لصلاح الرعية، كما يتحمل المريض مرارة الدواء رجاء العافية.

إنه ليس مجرد مداوٍ، وإنما مداوٍ تربطه بالمريض علاقة حب وود، الأمر الـذي يجعله يحس معه مرارة الدواء، ويسقيه إياه على الرغم من ذلك لأن فيه عافيته، إنـه يريد له الاستقامة والبراءة من كل عيب "الصاد والحاء أصل يدل على البراءة مـن المرض والعيب، وعلى الاستواء، من ذلك الصحة: ذهاب السقم، والبراءة من كل عيب" .[١]

ويريد له ترك الأوزار والتعافي منها، بل يريد دفاع الله عنه إذ "العين والفاء والحرف المعتل أصلان: يدل أحدهما على ترك الشيء والآخر على طلبه .... ومـن البـاب العافية: دفاع الله عن العبد " [٢]

[١]) مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق /عبد السلام هارون، ط دار الفكر ١٩٧٩ ،٣/٢٨١.
[٢]) المرجع السابق،٤/ ٥٦،٥٧

المبحث الثالث
المستوى التركيبي

١ –سمات التراكيب الكبرى

الاعتراض: جاء الاعتراض بالنداء في نص الرسالة في ستة عشر موضعا تراوحت بين مجيئه معترضا بين المبتدأ والخبر، وبين الفعل والفاعل، وبين اسم الناسخ وخبره، وبين الفعل ومتعلقه.

(اعلم –يا أمير المؤمنين– أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل) (والإمام العدل –يا أمير المؤمنين– كالراعي) (والإمام العدل –يا أمير المؤمنين– كالأب) (والإمام العدل –يا أمير المؤمنين– كالأم) (والإمام العدل –يا أمير المؤمنين– وصي اليتامى) (والإمام العدل –يا أمير المؤمنين– كالقلب) (والإمام العدل –يا أمير المؤمنين– هو القائم بين الله وبين عباده) (فلا تكن –يا أمير المؤمنين– فيما ملكك الله كعبد) (واعلم –يا أمير المؤمنين– أن الله أنزل الحدود) (واذكر –يا أمير المؤمنين– الموت) (واعلم –يا أمير المؤمنين– أن لك منزلا) (واذكر –يا أمير المؤمنين– إذا بعثر ..) (فالآن –يا أمير المؤمنين– وأنت في مهل) (لا تحكم –يا أمير المؤمنين– في عباد الله بحكم الجاهلين) (إني –يا أمير المؤمنين– وإن لم أبلغ ما بلغه أولو النهى– فلم آلك شفقة) (والسلام عليك –يا أمير المؤمنين –ورحمة الله وبركاته)

وجملة النداء واحدة في جميعها (يا أمير المؤمنين) وللاعتراض بهذه الجملة الندائية قيمة دلالية هامة، ووظائف تعبيرية وتأثيرية تنفعل بها نفس القارئ وتتأثر بها أيما تأثر، ففيها ما فيها من توقير المرسل إليه، وحفظ مكانته، وفيها الإبقاء عليه متابعا لقراءة

الرسالة، متنبها إلى كل ما يعظه به من أول جملة إلى آخرها، وتختص بعض المواضع بفوائد:

في قوله: (والإمام العدل –يا أمير المؤمنين– كالقلب) يجسد توسط الجملة الاعتراضية بين ركني الجملة توسط القلب بين الجوانح، فهو قلب الأمة، إذن في التركيب محاكاة للدلالة، ورسم لصورة المعنى عن طريق الصورة الخطية أيضا .

أما قوله :(والإمام العدل –يا أمير المؤمنين– هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم) فالاعتراض بلقب أمير المؤمنين فيه يجسد معنى القيادة الذي تنص عليه الفقرة، هو أمير المؤمنين وقائدهم، فالقيادة إلى الله أولى.

وفي قوله :(فلا تكن –يا أمير المؤمنين– فيما ملكك الله كعبد) تبرز أهمية الاعتراض بالنداء هنا في أن صيغة التحذير تقتضي مزيدا من التنبه والتركيز؛ لأنه يترتب على تفويت الإصغاء إليها ضرر جسيم، وهذا ما تجسده هذه الفقرة من الموعظة، إذ تحذر الفقرة من خيانة الأمانة، فلا تكن كذلك العبد الذي ضيع الأمانة التي اؤتمن عليها، احذر أن يكون حالك وقد ائتمنك الله على ملكه وخلقه أن تستبد بالملك، وتحرم الخلق، وتضيع حقوقهم، ولأنك أمير المؤمنين فأنت أولى بامتثال النصح ليتبعك غيرك.

(واعلم –يا أمير المؤمنين– أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها؟) إذا أتى الحدود أمير المؤمنين هل يقبل الناس بعد ذلك أن يقيمها عليهم؟ إنه لمن الخزي بمكان أن يرى الناس أميرهم في هذا الوضع الشائن

ينتهك حرمة الحدود، فتذكيره بلقب أمير المؤمنين هنا يدل على أنه لا يليق بمن في مكانته أن يفعل ما يشين.

(واذكر –يا أمير المؤمنين– إذا بعثر ما في القبور) كأنه يقول اذكر يا أمير المؤمنين حين تزول الإمارة ولا تملك من أمر نفسك شيئا في اليوم الآخر، نداؤه بلقب الإمارة يلمح إلى ضده وهو زوالها في الآخرة.

وجاء اعتراض آخر في قوله (إني يا أمير المؤمنين –وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهى من قبلي– فلم آلُكَ شفقةً ونصحًا) وقد جاء هذا الاعتراض لينم عن تواضع جم من المرسل، يستميل المرسل إليه بما يكشف عنه من مصداقية، وما يعكس من شفافية، فهو ليس متشادقا بالنصيحة، بل ناصح أمين، متضامن مع المرسَل إليه، وهذا يجعل النصح أولى بالقبول، مؤثرا في القلوب والعقول؛ لتستجيب له الجوارح.

التناص:

مفهومه: أن "كل نص يجذب إليه نصوصا أخرى أو يؤثر في مضمون نصوص لاحقة وفي شكلها" [١]

يتفاعل الكاتب مع نصوص القرآن الكريم التي ملأت قلبه، وانطبعت بها نفسه، ففاضت على لسانه، وسال بها قلمه في عظته، وليس بعد القرآن واعظ، فكانت تعبيرات القرآن أبلغ في الوعظ، وأعمق في التأثير .

---

[١]) لسانيات النص عرض تأسيسي، كيرستن آدمتسيك، تر/ سعيد حسن بحيري، ط١ زهراء الشرق –القاهرة ٢٠٠٩م ص٢٠٠.

في قوله (حملته كرها ووضعته كرها) يقتبس من الآية الكريمة ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ الأحقاف ١٥.

وقد انزاح المرسل في عبارته عن لفظ (أمه) المذكور في الآية الكريمة؛ لتقدم ذكره في نص الرسالة، وقد كان غرض الآية الإبانة عن المشقة التي تنم عن صبر الأم وتحملها، وأراد المرسل في النص أن يتحمل الإمام مشقة مسؤوليته عن الرعية، ويصبر عليها، ويوالي متابعتهم ورعايتهم.

وقوله :(يسمع كلام الله ويسمعهم) مقتبس من قول الله تعالى ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ التوبة 6

والسياقان مختلفان، فالآية الكريمة في الحديث عن المستجير، ووجوب تأمينه، وأن فيه نفعًا حين يسمع كلام الله فتداخله أنوار الهداية، وينقلها إلى قومه حين يبلغ مأمنه، والنص في سياق المسؤولية الدينية التي تقع على عاتق الحاكم، لكنهما مشتركان في الأثر المترتب على الحدث (سماع كلام الله) وهو الهداية.

وفي قوله :(فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه) يقتبس من قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) ﴾ عبس

وقوله :(واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور) مقتبس من قوله تعالى ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (10) ﴾ العاديات، وفي هذين الموضعين اتحاد في السياق والغرض.

وقوله :(فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) مقتبس

من قوله تعالى ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ الكهف ٤٩ وهنا يتراح المرسل عن اسم الإشارة الوارد في الآية؛ لأن الكتاب ليس حاضرا يشار إليه، ويتراح عن الاستفهام التعجبي؛ ليقدم المضمون في صورة الخبر، في صورة حقيقة مسلم بها لا تستدعي العجب، فالأمر كائن لا محالة، وعليك الاستعداد له.

وفي قوله :(ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة) يقتبس من قوله تعالى ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾التوبة ١٠ الآية في سياق الحديث عن المشركين ، والمرسل يحذر من سلوك سبيل الظالمين، وتمكين المستكبرين الطغاة المتجبرين من المستضعفين، فهم لا يراعون فيهم عهدا ولا صلة، اتصفوا بصفات المشركين، فثمت تشابه في السياق ، والغرض الذي هو التحذير ممن لا عهد له.

وفي قوله :(فتبوء بأوزارك، وأوزار مع أوزارك) يقتبس من قوله تعالى ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (25) ﴾النحل، الآية الكريمة في بيان أن عاقبة من ادعى أن القرآن أساطير الأولين، وعمل على إشاعة ذلك ليصد الناس عنه أن يحمل وزره وأوزار من يضل، وأنت أيها الأمير حين تسلط المستكبرين على المستضعفين فعليك وزرك وأوزارهم، والغرض تفظيع الحال وتقبيحها، عن طريق عقد الصلة بين الصاد غيره عن القرآن في الآية ، وبين من يساعد الجبابرة على النيل من المستضعفين في النص.

وقوله :(وتحمل أثقالك، وأثقالا مع أثقالك) مقتبس من قوله تعالى ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ العنكبوت ١٣ سياق الآية فيمن يدعون المؤمنين إلى أن

يتبعوهم وتعهدوا بأن يحملوا عنهم خطاياهم، فأبان الله تعالى كذب ما ادعوه ، وأنهم لا يستطيعون النجاة من ذنوبهم بل سيحملون فوقها ذنوب من يضلون ، ونص الرسالة تأكيد للجملة السابقة ، وفي الغرض ذاته .

وفي قوله (ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك) اقتباس من قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾الأحقاف ٢٠ "والمعنى [في الآية]: استوفيتم ما لكم من الطيبات بما حصل لكم من نعيم الدنيا ومتعتها فلم تبق لكم طيبات بعدها لأنكم لم تعملوا لنوال طيبات الآخرة" [١] وفيه عقد للصلة بين صورة المتجبرين وهم يتنعمون في الدنيا بالطيبات لتذهب طيبات المرسل إليه في الآخرة، وصورة الكافرين تمتعوا في الدنيا ولم يجدوا شيئا في أخراهم بل انتظرهم عذاب الهون في نار الجحيم، وفيه تشنيع على البطانة السيئة للحكام حين يودون بهم تحقيقا لمصالحهم ،وقد حدث تحول عن نص الآية في الضمائر، في الآية المستمتع في الدنيا هو من حُرم الطيبات في الآخرة وعليه عاد وبال فعله، فالضمائر كلها للخطاب (أذهبتم، طيباتكم، حياتكم ، استمتعتم) ، بينما اختلفت الضمائر في نص المرسِل بين الغائب والمخاطب، فالمستمتع غير المحروم، فهم يستمتعون وعليك يعود الحرمان من الطيبات في الآخرة والعقاب، فجناية الغير أشد وطأة على الشخص من جناية النفس، فلتدرأها عنك، ولا تترك لها سبيلا إليك، فكان لهذا التحول في الضمائر دور في حفز المرسَل إليه على تجنب بطانة السوء، وتحول في أزمنة الأفعال

[١]) التحرير والتنوير، لابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع –تونس ١٩٩٧م ٢٦/٤٢.

من الماضي إلى المضارع لاستحضار الصورة وجعلها ماثلة في ذهن المرسل إليه .

وقوله :(وقد عنت الوجوه للحي القيوم) مقتبس من قوله تعالى ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ طه ١١١ الآية والنص متفقان في التصوير المشهدي لليوم الآخر حين تخضع الرقاب، وتخشع الأصوات، وتذل الوجوه لعظمة الله وجلاله، حيث تسلب قدرة جميع الخلائق، وتعييهم الحيل في تحسين العمل، ويقولون يا ليتنا نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل، والمرسل يلفت المرسل إليه إلى هذا الموقف لئلا يغتر بقدرته في الدنيا، وليجعل نصب عينيه ضعفه في هذا الموقف، وقد حدث تحويل في النص المقتبس بزيادة (قد) لوقوع الجملة المصدرة بالفعل الماضي في نص الرسالة حالا "وهو[الماضي] لا يقع حالا إلا مع (قد) مظهرة أو مقدرة" .[١]

يلي التناص مع القرآن التناص مع الحديث الشريف المصدر الثاني للتشريع ،فقوله (والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده) يتناص مع الحديث الشريف ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)) [٢]

وقد حدث تحول في نص المرسِل عن نص الحديث الشريف دون أن يفارق المعنى الأصل، تمثل هذا التحول في الفعل المضارع في النص بدلا من الماضي في الحديث، والجوانح بدلا من الجسد، أراد المرسل من خلاله إفادة تجدد صلاح الرعية بصلاح

---

[١]) دلائل الإعجاز ص ٢٠٩.

[٢]) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ١/ ٢٨ (٥٢)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٣/ ١٢١٩ (١٥٩٩).)

الراعي، والعكس صحيح، وربما كان استخدام الجمع (الجوانح) بدلا من المفرد (الجسد) أنسب للرعية ليفيد كثرة الخير المترتب على صلاح الأمير وتعدده بتعدد أفراد الرعية، وكثرة الشر المترتب على فساده واستشراءه بتعدد من يتبعه فيه، وللأصل اللغوي لكلمة الجوانح دلالة عميقة، إذ تدل على إقبال على العمل بدعم داخلي وعزيمة أكيدة "الرجل يَجْنَحُ إذا أَقبل على الشيء يعمله بيديه وقد حَنَى عليه صَدْرَه" [١] فهو لا يحني عليه صدره إلا لانهماك شديد فيه وقناعة تامة به، إذن يتعمق الصلاح ويقتنع به عن طريق الراعي، والعكس صحيح، ويلزم عن صلاح الجوانح صلاح الجوارح، وقد اتبع الحديث أسلوب التشويق حينما قال (مضغة) ولم يفصح عن (القلب) إلا في آخر الحديث، بينما خلا منه نص الرسالة؛ ليعمد مباشرة إلى القلب المقابل للإمام في الصورة ، وهو الذي عليه مدار النص ، ثم يردف بما يترتب عليه.

فهو يتخذ من مصدري التشريع (الكتاب والسنة) مؤكدا لعظته، وحجة للإقناع بها، وحاثا على امتثالها، فهو يقبس من نورهما لغرض الاهتداء وعموم النفع إذ "القبس: الشعلة من النار ...وقوله تعالى﴿بشِهاب قَبَسٍ﴾النمل ٧ القبس: الجذوة من النار التي تأخذها في طرف عود" [٢] والنار كما تكون مصدر دفء تكون أيضا مصدر نور يُهتدى به، وتناص المرسل مع نصوص القرآن والحديث نوع من

[١]) لسان العرب، مادة (جنح).

[٢]) لسان العرب، مادة (قبس).

الاستثمار النافع "يندرج ضمن المقصدية والمماثلة والتبجيل" [١]

وهكذا يبدو التناص سمة غالبة من سمات موعظة الحسن البصري.

الوصل والفصل:

يعد الوصل بين الجمل ثاني السمات التركيبية شيوعا في النص بعد الاعتراض، وكان (التوسط بين الكمالين مع عدم المانع من الوصل) سببه الأول والأكثر في تلك المواضع.

فقد شاع الوصل حيث ضم الجمل بعضها إلى بعض بالواو؛ لأنه أراد أن يجمع للموعوظ أكبر حشد من العظات؛ ليحقق له ولرعيته خيري الدنيا والآخرة، والجمل الموصولة كثيرة وواضحة، فإرادة الجمع بين هذه المواعظ هي مسوغ الوصل بين الجمل الخبرية التي تبدأ بها الفقرات حيث العبارة الموحدة المكررة (والإمام العدل ...) وهي مسوغ الوصل –أيضا– بين الجمل الإنشائية : (اعلم ، واذكر ،واعلم ، واذكر ...) على رأس بعض فقرات الرسالة.

وفي داخل الفقرات تم الوصل بين الجمل التالية:

(يرتاد لها أطيب المرعى، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنفها من أذى الحر والقر)، (يسعى لهم صغارا، ويعلمهم كبارا)، (يكتسب لهم في حياته،

---

[١]) دينامية النص تنظير وإنجاز، د. محمد مفتاح، ط١ المركز الثقافي العربي– الدار البيضاء، بيروت ١٩٨٧ ص١٠٥ والمقصدية هي ما يكون محركا للمنتج وللمتلقي من معتقدات وظنون وأوهام بوعي منه أو دون وعي، والمماثلة والمشابهة هي نسبة الاتفاق بين المتناصين، والتبجيل أعلى علاقة تعضيد بين النص اللاحق والنص السابق .(المرجع نفسه ٨٢–٨٥)

ويدخر لهم بعد مماته)، (تسهر بسهره، وتسكن بسكونه)، (يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم) ، .....

وهكذا على نحو ما جاء في النص ولا يخفى على القارئ، إما أن يكون للجملة الأولى حكم إعرابي، وأريد اشتراك الثانية معها في الحكم، أو تكون الجملة الأولى لا محل لها من الإعراب وتتفق معها الثانية خبرا أو إنشاء لفظا ومعنى، مما يوجب الوصل، ثم يحسن الوصل اتفاق الجمل في الاسمية مثل جمل (والإمام العدل..) أو الفعلية مع المضارعة مثل (يرتاد لها ..، ويذودها ..، ويحميها ..) هذا من أمثلة الجمل المعطوفة على جمل لا محل لها من الإعراب.

ومن أمثلة الجمل التي لها محل من الإعراب وأريد إشراك الجملة اللاحقة معها في الحكم ذاته (كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله) فجملة (ائتمنه) صفة لعبد، أريد لجملة (استحفظه) أن تشاركها في ذلك الحكم؛ ليجمع للعبد بين الائتمان والاستحفاظ، أي أن سيده طلب منه حفظ المال والعيال ونص عليه، ليظهر قبح فعل العبد فيما بعد في تبديد المال وتشريد العيال.

أما عن المواضع التي ترك فيها العطف بالواو –والأولى أن تسمى مواضع الوصل الخفي– فهي كما يلي :

(والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغارا) لم تعطف جملة (يسعى ..) على ما قبلها لكمال الاتصال، إذ هي بيان لما قبلها وتوضيح وتفصيل لذلك الحنو ومقتضياته.

(والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة، البرة الرفيقة بولدها، حملته كرها) لم

تعطف جملة (حملته)على ما قبلها لصلتها الوثيقة بها، إذ بينهما كمال اتصال، فهي بمنزلة عطف البيان من متبوعه في إيضاحه وبيانه.

(وربته طفلا، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة) استغنت الجملتان عن الربط بالواو ؛ لكونها يؤكد بعضها بعضا ، أي لكمال الاتصال ، فقوله (تسهر ..) و (ترضعه ..) تأكيد لمعاناة الأم في تربية طفلها، وتحملها المشاق لأجله " ويعد التوكيد وسيلة من وسائل سبك النص، وتقوية المعنى فيه، من خلال العلاقة بين المؤكَّد والمؤكِّد، فالتأكيد لون من التكرير بالمعنى، ويمثل وجوده دعما للجانب الدلالي والتداولي في النص؛ إذ يسمح التكرار للمبدع أن يقول شيئا مرة أخرى بالتتابع مضيفا بعدا جديدا له أيضا" [١]

إذن في التأكيد إثراء للدلالة، وخدمة للغرض التداولي، وتوسعة للمجال أمام المبدع لإضافة جديدة.

(والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه) لم تعطف جملة (تصلح ..) على ما قبلها لشبه كمال الاتصال، فقد أثارت الأولى سؤالا في ذهن المخاطب: كيف يكون الإمام كالقلب بين الجوانح؟ فجاءت الثانية جوابا عنه وبيانا للكيفية.

ومثله قوله (والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله) فقد أثارت الأولى سؤالا : كيف يكون الإمام قائما بين الله وبين عباده؟ جاءت الثانية جوابا عنه، مبينة لمهام هذه المسؤولية، من تبليغهم أمور دينهم ، وحثهم على

[١]) المعاني (دراسة في الانزياح التركيبي) ص٣١٥.

مراقبة الله في كل أعمالهم بتطبيق هذا على نفسه أولًا .

وإذا ما جئنا إلى التحقيق فإن الجواب عميق الصلة بالسؤال؛ إذ هو كشف للغموض وإزالة للإبهام، فهو وسيلة من وسائل الربط والوصل الدلالي.

وعليه فالوصل سمة أسلوبية بارزة في نص الرسالة.

الذكر والحذف:

الذكر: "ذكر المسند إليه (الإمام العدل) عدة مرات لزيادة الإيضاح والتقرير " [١]، وقد سبق الحديث عنه في التكرار.

الحذف :حذف المفعول من (يسمعهم) لوضوح الدلالة عليه فيما قبله، والتقدير: (ويسمعهم كلام الله) ، فتم حذفه احترازا عن العبث بناء على الظاهر "وهي عبارة دقيقة وصادرة عن تفكير صادق؛ لأن ذكر الكلمة التي يدل عليها سياق الكلام فيه ثقل، وترهل في الأسلوب، وهي شبيهة بالعبث وليست عبثا؛ لأنها جزء من الكلام، وذكر جزء الكلام لا يكون عبثا، ولذلك جاء قولهم بناء على الظاهر أي لا في حقيقة الأمر؛ لأننا عند التحقيق لا نسميه عبثًا"[٢] فذكر المفعول في الحقيقة ليس عبثا، لكن يظهر أنه عبث لاستغناء السياق عنه بما ذكر قبل، وفي الجملة الثانية (ويريهم) حذف المفعول قصد التعميم، أي على الحاكم أن يراقب الله ويُرِي الرعية ما يصلح أحوالهم، ويبصرهم بأمور دينهم ودنياهم، ويكون بحق قائما بين الله

[١]) في علم المعاني، د. حمزة الدمرداش زغلول، ط٢ بل برنت–القاهرة ١٩٨٧م ١/١٥٠

[٢]) خصائص التراكيب –دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد محمد أبو موسى، ط ٧ مكتبة وهبة، ص١٦٠.

وبينهم، قد قطع على نفسه ألا يعلم شيئا إلا أعلمهم إياهم، ولا ضررا إلا حذرهم منه، ولا نفعا إلا وجههم إليه، فحذف المفعول وسع الدلالة، وأفسح المجال لإعمال الفكر في تقدير المحذوف، والذهاب فيه كل مذهب، يضاف إلى ذلك الفائدة الموسيقية، حيث تحقق السجع مع القرينة السابقة عليها، واللاحقة لها.

وفي قوله: (فتزود له ولما بعده) جاء الفعل في سياق ذكر الموت، فهو ينصح باتخاذ الزاد والعدة له، لم يحدد نوعا بعينه من الزاد، بل سكت عن المفعول لينشط خيال المتلقي: ماذا أتزود له؟ أتزود له صلاة أم صياما أم زكاة، أم عطفا على الرعية، أم حنوا على المساكين، أم رعاية للأرامل واليتامى ،....." فإنك ترى به [أي الحذف] ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن" [١]

فيجتهد المتلقي في تحصيل الزاد من جميع وجوه البر والطاعات متخذا منها عدة للموت وما بعده لتكون مأمنا له من الفزع الأكبر، ففي الحذف إثراء للدلالة، وتوسيع لنطاق العمل.

وفي قوله (إذا بعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور) بُني الفعلان للمفعول وحذف الفاعل للاهتمام بالحدث المهول، إذ معلوم أنه يتم بقدرة القادر –سبحانه– فالحدث هنا مناط الأهمية، إذ يذكر المخاطب بأهوال البعث والحساب، حين يُقلب ما في باطن القبور خارجها، وتُجمع وتُحصى أعماله؛ ليحاسب عليها، لا أعماله

[١]) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق /محمود محمد شاكر، ط٣ المدني –القاهرة وجدة ١٩٩٢م ص ١٤٦.

الظاهرة وحسب، بل ما أضمر في صدره وأخفى يكشف للعيان ويفتضح أمره على رؤوس الأشهاد، وهذا ما فسره بقوله (فالأسرار ظاهرة)، فالحدثان: البعثرة، والتحصيل هما ما يتعلق به الغرض في السياق من إلقاء الروع في قلب المرسل إليه؛ ليستعد لهما تمام الاستعداد بالعمل الصالح وتقوى الله في الرعية واستشعار عظم المسؤولية الملقاة على عاتقه.

"وبعثرة القبور: حالة من حالات الانقلاب الأرضي والخسف خصت بالذكر من بين حالات الأرض لما فيها من الهول باستحضار حالة الأرض وقد ألقت على ظاهرها ما كان في باطن المقابر من جثث كاملة ورفات " [١].ففي العدول عن ذكر الفاعل تقوية للدلالة بالتركيز على الحدث المهول.

(والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة) من قبيل حذف الموصوف، والتقدير: لا يغادر فعلة صغيرة، ولا فعلة كبيرة، وقد حذف لوضوحه ومبادرة إلى إفادة الاستقصاء والإحاطة بكل أعمال المرء، عظيمها وحقيرها، فلا يستهان بالصغائر فإن اجتماعها يودي بصاحبه.

التقديم :

لم يأت إلا في موضعين مما يعني أنه ليس من سمات الرسالة:

الأول: (أن لك منزلا) تقديم خبر (أن) على اسمها تقديم للمسند على المسند إليه، أفاد التنبيه على أنه خبر لا صفة، وقد جاء ذلك بعد ذكره للموت ليعلم أن المقصود بالمنزل القبر، فليس الموت وحسب، وإنما يسلمك الموت إلى وحدة ووحشة في القبر

[١]) التحرير والتنوير ١٧٢/٣٠.

ذلك المنزل المغاير لمنازل الدنيا وما عهدت فيها من ترف ونعيم وأنس وبهجة.

الثاني: (يطول فيه ثواؤك) تقديم الجار والمجرور على الفاعل مبادرة إلى إفادة أن طول المكث والإقامة كائن في القبر، وأنت متلبس بوحشته، منفرد بظلمته لا في مكان سواه، أي أفاد القصر.

٢- الأسلوب بين الخبر والإنشاء:

تراوحت الجمل بين الخبر والإنشاء، الخبر حيث يراد التقرير في المواضع الهادئة الرصينة، والإنشاء في المواضع التي تقتضي مزيدا من التنبيه.

أولا: الخبر: تنوع الخبر بين الإثبات والنفي، وبين الجمل الاسمية والجمل الفعلية، لكن الغلبة للخبر المثبت.

الخبر المثبت:

(الجملة الاسمية):

بلغ عدد الجمل الاسمية إحدى عشرة جملة: منها ست جمل كبرى تبدأ بـ(الإمام العدل..) للدلالة على التقرير والثبوت والدوام، أي لا بد أن يكون الإمام العدل -دائما- راعيا وأبا وأما، ووصيا على اليتامى وخازنا للمساكين وقلب الأمة الذي تصلح بصلاحه والقائم بين الله وعباده.

وخمس جمل في ثنايا الفقرات (الأسرار ظاهرة)، (والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة) ،(وأنت في مهل) ، (وأنت مأسور ..)، (والسلام عليك) ليفيد ثبوت صفة الظهور للأسرار ، وصفة الإحاطة للكتاب ، ويعطي دلالة خاصة للحال بمجيئها جملة اسمية، إذ وأنت في الدنيا في مهل، لكن هذا المهل لن يتجدد بعد الموت، فأفاد ثبوته

له في الدنيا دون تجدد فيما بعد.

أما جملة (وأنت مأسور) فأفادت الاسمية فيها ثبوته ودوامه على هذه الهيئة لا يستطيع حراكا، وقد كبلته حبائل الموت، فقد أراد تثبيت المشهد في عيني المتلقي لينطبع في ذهنه هكذا خاليا من الحركة لمزيد من الدلالة على سلب القدرة التي كان متمتعا بها في الدنيا.

وفي قوله (وأنت في مهل)، (وأنت مأسور..) استعمل (أنت) التعاونية ضمن الاستراتيجية التضامنية للخطاب، وهذا يشير إلى "أن المشاركين في الخطاب يعتبرون أنفسهم ذوي علاقة حميمة من الناحية الاجتماعية، ويمكن تعريف العلاقة الحميمة بأنها التعابير عن القيم المشتركة، .، .،. ، وتكرار التواصل" [١]

فهذه القيم المعبر عنها السياق من الحث على اغتنام الحياة والسعة قبل الضيق والموت، ومن تذكر انعدام الفرصة وإعياء الحيل عند الموت كلها من القيم المشتركة بين المسلمين جميعا، فضلا عن كون طرفي الخطاب تقِيِّيْن ورِعَيْن، تعلو هذه القيم عندهما، إضافة إلى تكرار التواصل بين الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما.

[١]) استراتيجيات الخطاب –مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط ١ دار الكتاب الجديد المتحدة –بيروت ٢٠٠٤م ، ص٢٨٨ .

(الجملة الخبرية الفعلية):

المضارع المثبت:

تحتل الجملة الفعلية التي فعلها مضارع الصدارة في الرسالة، فقد مثل المضارع الجملة الخبرية الفعلية في اثنين وأربعين موضعا، كل مقطع من مقاطع الرسالة يحوي العديد من الأفعال المضارعة، وهو الزمن الأكثر مناسبة لأسلوب الرسالة، فإن " لمؤلف الرسالة أن يختار بين استعمال الزمنين المضارع والمستقبل المنذرين بأن العلاقة قائمة بين الحاضر والمستقبل .... وهو كثير الوقوع " [١] ، ولأن المقام مقام وعظ ، أريد أن يُتخذ محتوى العظة عدة للمستقبل ، وزادا متجددا ، وذخرا ينهل منه الموعوظ فلا يفنى .

(يرتاد لها أطيب المرعى، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنفها من أذى الحر والقر) يلاحظ أربع جمل فعلية تصف حال الراعي مع إبله؛ لتنتقل هذه الحال إلى الحاكم مع محكوميه، فانظر إلى هذه العناية الفائقة التي أراد لها المبدع أن تتجدد من الراعي للرعية فاختار لها صيغة المضارعة الدالة على الحركية لتشمل الأزمنة الثلاثة ارتاد ويرتاد حاضرا وسيرتاد مستقبلا، وذاد ويذود حاضرا وسيذود مستقبلا ..... إنه أراد أن يضمن استمرار الفعل وحركيته مع الزمن، وأن يظل الراعي يزاوله ويتعهده.

وفي المقطع التالي: (يسعى لهم صغارا، ويعلمهم كبارا، يكتسب لهم في حياته،

---

[١]) مبادئ الأسلوبيات العامة، بيار لرتوما، تر/ محمد الزكراوي، مراجعة/ حسن حمزة، ط ١ المنظمة العربية للترجمة –بيروت ٢٠١١م ص٢٥٤.

ويدخر لهم بعد مماته) جسد المبدع حركية الأب وسعيه الدؤوب في مصالح أولاده، هذا السعي لا يتحدد بزمن، بل يتعدى زمن حياته ليحقق لهم النفع بعد مماته؛ لينتقل هذا الحرص إلى الراعي تجاه رعيته، فلا يتوقف على فترة حكمه، وإنما يعمل على ما يحقق راحتهم مستقبلا حتى بعد أن يؤول الأمر إلى غيره.

(تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته) الأم يتجدد عناؤها بتجدد عناء ولدها، ويحدث سكونها وراحتها بحدوث راحته، وتفرح بعافيته فرحا يعم الأزمان جميعها، ويمحو آثار معاناة الماضي كلها، ويتجدد غمها إذا ما طرأت شكواه، فللتعبير بالمضارع دلالات ما كانت لتتحقق دونه.

(يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم) عبر بالمضارع لأن التربية متجددة بتجدد المواليد، والمؤونة متجددة بتجدد الحاجة، فليكن كذلك – أيها الإمام– تعهدك لرعيتك لا ينقطع، تزاوله وتزجيه ذلك أن "الفعل يقتضي مزاولةَ وتجدُّدَ الصفةِ" [١]

(تصلح الجوانح بصلاحه، وتفسد بفساده) تصلح الرعية ويتجدد ويستمر صلاحها بصلاح الراعي، والعكس صحيح تفسد ويستمر فسادها مستقبلا إذا كان الراعي فاسدا، فعليك بالاستقامة؛ فأنت القدوة إذا ما فسدتَ عليك تبعة ما يستقبل من فساد الرعية لأنك من أشعل شرارته، وأذِن للهيبه أن يسري فيها.

(يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم) يظل الإمام متابعا ومراعيا أحوال رعيته حريصا على استقامة أمورهم، دينهم

[١]) دلائل الإعجاز ص ١٧٥.

وعلاقتهم بربهم، يسمع كلام الله سماع تعقل وتدبر ويسمعهم إسماع عظة وإفهام، ويجدد مراقبته لله ويريهم كيف يكون ذلك، ويستمر على انقياده لله وطاعته له ويقودهم معه إلى طريق الرشد، وقد رسم المضارع الصورة، واستحضر حال الإمام في حرصه على السماع والنظر والانقياد؛ ليكون قائدا للرعية إلى طريق ربهم.

نستنتج من تحليل دلالات الزمن في الفعل المضارع الممثل للجملة الخبرية المثبتة إمكانية انفتاح الفعل على جميع الأزمنة، وبالتالي اتساع حركيته، وتجلي فاعليته البنائية، وأسلوبيا أسهم الفعل بربط الدلالات الخبرية وامتداد أزمنتها تحقيقا لوظائفه البلاغية.

الفعل الماضي المثبت:

أسلوبيا تضعف حركة هذا الفعل، إذ يدل على زمن واحد هو الماضي، فتقتصر دلالة الحدوث على مرة واحدة، ولا وجود لدلالتي الدوام والتجدد ومن نماذج الماضي في النص:

(حملته، ووضعته، وربته) جاءت الأفعال ماضية للدلالة على حدوث الفعل مرة واحدة وانتهى الأمر، لا دلالة للدوام أو التجدد فيها، فالحمل مرة واحدة، والوضع مرة واحدة، والتربية ينتهي زمنها بانتهاء زمن الطفولة، وقد خلا الفعل فيها من المؤكدات؛ لأنه لا سبيل إلى التردد أو النزاع فيها فهي من المسلمات.

(ائتمن، استحفظ، بدد، شرد، أفقر، فرق) جاءت هذه الأفعال في سياق التحذير من هذه الصورة السلبية لعبد خان الأمانة، وضيع ما اؤتمن عليه، فالأفعال مبنية على الأسلوب الإنشائي التحذيري (لا تكن كعبد) وقد جاءت ماضية حكاية لقصة

العبد، فالماضي هو المناسب للحكاية.

(فكيف إذا أتاها من يليها؟ .... فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم) على الرغم من أن صيغة الفعلين (أتى، وقتل) ماضية، إلا أن (إذا) وهبتهما الدلالة المستقبلية في سياق إنكار أن يأتي الحدود من يتولى تنفيذها، وإنكار أن يقتل العباد من أخص وظائفه الاقتصاص لهم، فهما في تأويل: فكيف يأتيها؟ وكيف يقتلهم؟

وكذا الفعلان (بُعثر، وحُصل) لهما الدلالة المستقبلية بدخول الظرف الشرطي (إذا) فزمن البعثرة والتحصيل لم يأت بعد، ونكتة التعبير بالماضي إفادة تحقق الوقوع، إذ الحدثان كائنان لا محالة، وهولهما قادم قادم، فلتعمل ما يقيك فزع يومئذ، ويكون منجاة لك من الهول، فالتعبير بالماضي فيه مزيد من الحث على الاستعداد لهذين الحدثين العظيمين بما يحقق جميل الستر، وحسن الخاتمة.

(وقد عنت الوجوه للحي القيوم) الإخبار عما سيكون بالفعل الماضي يحمل دلالة الحتمية وتحقق الوقوع، وقد جاء الفعل في سياق استحضار مشهد القيامة (وأنت مأسور ...) حيث ذكر الموت والحشر والوقوف بين يدي الله في مشهد مهيب تشهده الملائكة والنبيون والمرسلون، والوجوه خاضعة ذليلة للعزيز صاحب الملك يحكم فيها كيف يشاء، فلتنظر يا أمير المؤمنين كيف تصير حينئذ مسلوب القدرة منزوع الملك، لا سبيل لك إلى العودة للحياة مرة أخرى فتتدارك ما فات. فاغتنم الحياة قبل الممات، والقوة قبل الضعف، والملك قبل نزعه اغتنمها جميعا فيما يحقق مرضاة الله –تعالى– ويؤمنك الفزع، ويقيك الخزي.

هذا، وقلة عدد الجمل الخبرية التي فعلها ماض لا يلغي القيمة البلاغية لها، وإنما يلغي

كون الفعل الماضي سمة من سمات أسلوب التراكيب في الرسالة، وإلا فلها قيمة بلاغية تستحق الوقوف عندها.

الجمل الخبرية المنفية:

خلت الرسالة من الجملة الاسمية المنفية، وجاءت الجملة الفعلية المنفية في أربعة مواضع جميعها المنفي فيها الفعل المضارع، موضعين للنفي بـ(لا) التي يدل النفي بها على نفي الفعل في الحال، وموضعين للنفي بـ(لم) الدالة على نفي الفعل في الماضي:

(والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) على الرغم من أن (لا) موضوعة للدلالة على نفي وقوع الحدث في الزمن الحالي، إلا أن السياق منحها الانفتاح على جميع الأزمنة، فالكتاب لم ولا ولن يغادر صغيرة ولا كبيرة من الأعمال إلا أحصاها، وعدها، وسجلها عليك؛ لتجازى بها.

(ولا تسلط المستكبرين ... فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة) جاء الفعل المضارع المنفي الدال على الحال في سياق وصف المستكبرين الظالمين، فهم لا يراعون في المؤمنين عهدا، ولا ذمة، ولا يحفظون الأواصر التي قد تجمعهم بهم فـ" الذمّة ما يمتّ به من الأواصر من صحبة وخلة وجوار ممّا يجب في المروءة أن يُحفظ ويُحمى، يقال: في ذمّتي كذا، أي ألتزم به وأحفظه " [١] هذه هي حالهم، فلا تعطهم الفرصة، ولا تمكنهم من المستضعفين، فإنهم لا طاقة لهم بهم، فإن أمكنتهم منهم فستحمل أوزارهم.

[١]) التحرير والتنوير ١٠/١٢٤.

(وإني ... وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهى، فلم آلك شفقة ونصحا) دل الفعلان المنفيان على نفي وقوع الحدثين في الماضي بمعنى (ما بلَغت، وما قصرت).

هذا، والنفي ليس سمة أسلوبية للرسالة، وإنما هو أحد أساليب الخبر فيها، والإثبات هو السمة الغالبة.

مما سبق يتضح أن الجملة الخبرية الفعلية ذات الفعل المضارع المثبت هي السمة الغالبة على الأسلوب الخبري للرسالة؛ لما يتمتع به من حركية وحرية وانفعال، وما يفيده من تجدد واستمرار، بما يتواءم مع مدلول الرسالة ومغزاها من تجدد نفع الراعي للرعية، وعدم اقتصاره على زمن، بل انفتاحه على جميع الأزمنة ، ففي الرسالة "تتجلى الكليتان الأسلوبيتان الجوهريتان في هذا الجنس وهما الإضمار ، والعبارة عن الزمان" [١] على نحو ما تجلى من استخدام الفعل على اختلاف أزمنته .

وعلى الرغم من كثرة عدد الجمل الفعلية الخبرية إلا أنها لم تستقل، بمعنى أنها بنيت إما على جملة اسمية كبرى كتلك التي تبدأ بـ(الإمام العدل)، أو جاءت مؤسَّسة على أسلوب الإنشاء كما في الفقرات التي تبدأ بـ(اعلم، واذكر، ولا تكن).

الإنشاء:

النداء: أكثر أساليب الإنشاء دورانا في نص الرسالة، فقد جاء في ستة عشر موضعا، سبق ذكرها في الاعتراض، وغرض النداء تنبيه المرسل إليه ليظل متيقظا نشيطا متابعا

[١]) مبادئ الأسلوبيات العامة، ص٢٦٥.

إلى آخر حرف في الرسالة؛ ليعي مضمونها جيدا، ويضعها في عين الاعتبار.

وجملة النداء (يا أمير المؤمنين) فيها استمالة للمرسل إليه؛ إذ " استعمال الألقاب تداوليا دليل على التضامن وإن كان يأتي دون مرتبتي الاسم الأول والكنية ....

ويكثر استعماله في خطاب النصح ليدل به المرسل على أنه يعمل لصالح المرسل إليه ، وذلك في مثل خطابات ... أو الدعوة إلى الله" [١]

فاستعمال لقب (أمير المؤمنين) يعد من قبيل استراتيجية الخطاب التضامنية، التي لها فوائد في تعديل السلوك وامتثال مضمون الخطاب.

إذن النداء سمة أسلوبية في النص جسدت حرص المرسل على تنبه المرسل إليه.

الأمر: يمثل الأمر ثاني أساليب الإنشاء توظيفا في النص بعد النداء، جاء في تسعة مواضع، خمسة منها بتكرار الفعلين (اعلم، واذكر) مراوحا بينهما، والسادس والسابع بتكرار الفعل (تزود) والثامن في قوله (انظر إلى قدرتك غدا) والتاسع في قوله (أنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه).

جاءت كلها في سياق الحث والعظة ، فالغرض منها النصح والإرشاد ، والتوجيه لما فيه النفع ودرء الضرر ، ويتجلى فيها حرص الحسن البصري على نفع المؤمنين وأميرهم ، واستقامة المجتمع المسلم ، وجمعه بين خيري الدنيا والآخرة .

ومما يعطي التوجيه قوة إنجازية سلطة المرسل الدينية "فتوفر السلطة لدى المرسل شرط أساس عند استعمال معظم استراتيجيات التوجيه، حتى لو كانت السلطة مختبئة وراء المرسل، مثل السلطة الدينية التي تسوغ استعمال هذه الاستراتيجية لمن

[١]) استراتيجيات الخطاب، ص٢٧٦،٢٧٥.

يريد توجيه الناس وتبليغهم بما توجبه الشريعة، وبما تحرمه"[١]

والمنفعة الإنجازية عائدة على المرسل إليه مما يدفعه إلى الامتثال، خاصة وأنه هو من طلب من المرسل أن يكتب إليه.

النهي: يأتي النهي بعد الأمر استعمالا في النص؛ إذ جاء في ستة مواضع: (لاتكن كعبد)، (لا تحكم.. بحكم الجاهلين، ولا تسلك، ولا تسلط، ولا يغرنك، لا تنظر إلى قدرتك اليوم)

وجميعها غرضها –كالأمر – النصح والإرشاد إلى ما فيه صلاح العباد والبلاد.

ويلاحظ في قوله :(فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مَهَل، قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين) يستعمل الإشارية الزمانية (الآن) التي لا تحدد زمنا تحديدا دقيقا، أي تدل على زمن مبهم ليجعل نشاطه قائما ما دام حيا، ويجعل كفه عن الأفعال المنهي عنها في السياق مزاولا دائما، وفي هذا حث على اغتنام زمن الحياة قبل مفاجأة الموت؛ لتستوعب (الآن) العمر كله.

والنهي في (لا يغرنك) "يعلو النهي في الخطاب السابق درجة لأن فيه تأكيدا، والتأكيد نتيجة لمعرفة المرسِل بالمرسل إليه وبعناصر السياق جيدا، وفي هذا نجد أن النهي طبقات بناء على السياق التداولي، وذلك بمعرفة خصائص المرسل إليه من الضعف والقوة، وكذلك أهمية الأمر المنهي عنه" [٢]

---

[١]) استراتيجيات الخطاب، ص٣٢٥.

[٢]) استراتيجيات الخطاب، ص ٢٥٠،٢٥١.

وهنا يرجع التأكيد إلى أهمية الأمر المنهي عنه حيث يستمتع هؤلاء بالطيبات ويُودون به في المهلكات، وينعمون في دنياهم بما به يبتئس في آخرته.

الاستفهام: أقل أساليب الإنشاء توظيفا في النص؛ إذ لم يرد إلا في موضعين:

(فكيف إذا أتاها من يليها؟)، (فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟)

والاستفهامان فيهما معنى الإنكار، وإثارة العجب والدهشة من صدور الفعل من جهة قد نصبت لمصادرته، والوقوف ضده، وعقاب من يأتيه.

وعليه، الاستفهام ليس سمة أسلوبية للنص لكنه لم يعدم القيمة البلاغية.

وخلاصة القول في الخبر والإنشاء: إنه على الرغم من غلبة الأسلوب الخبري على النص إلا أن بعض الجمل الخبرية جاءت مؤسَّسة على الأساليب الإنشائية، حيث يستهل المقطع بفعل الأمر (اعلم) أو (اذكر) أو (انظر) أو أسلوب النهي مثل (لا تكن)، (لا تسلط) ثم يبني عليه الجمل الخبرية، وهذا له قيمة بلاغية، فتصدير المقاطع الوعظية بالإنشاء يلفت انتباه المتلقي، ويبقي على نشاطه، ويقظة ذهنه لتصادف الموعظة موقعها من القلب، فتدخل حيز الاقتناع ثم الامتثال.

3 – التضاد :

يشهد التضاد بالاسم غلبة على التضاد بالفعل، نرى ذلك في نحو (قوام، ومائل)، (صلاح، وفاسد)، (قوة، وضعيف)، (نصفة، ومظلوم) والتضاد في هذه الوحدات لتأكيد التحول الجذري، وأنه مسؤولية منوطة بالحاكم، بأن يبدل بالميل استقامة، وبالفساد صلاحا، وبالضعف قوة.

(الحر، والقر) (صغار، وكبار) (حياته، ومماته) والتضاد هنا لتأكيد دلالة شمول

الرعاية.

(ترضع وتفطم): تبديل الأحوال بما يصلح أمره وبالتالي علي الراعي أن يناوب بين الإعطاء والحجب وبين الشفقة والحزم على نحو يصلح الرعية، وقوله (تفرح بعافيته) و (تغتم بشكايته) مقابلة توضح عظيم تأثر الأم لولدها، وسرعة تبدُّل حالها بتبدل أحواله (صغير وكبير) تأكيد لدلالة الشمول (تصلح وتفسد) ليتضح الضد بضده، فيظهر حسن الصلاح وقبح الفساد (عبد وسيد) بيان لقبح تصرف العبد وتعديه على سيده، هو سيده ومالك أمره، وله سلطان عليه، وعلى الرغم من ذلك كانت له جرأة عليه سوغت أكل ماله.

(القصاص حياة) التضاد ولد من النقيض نقيضه ليتعظ الناس ويكفوا عن قتل بعضهم بعضا، وجعل الله تنفيذ القصاص مسؤولية الحاكم، فكيف إذا كان هو القاتل؟ فالتضاد جاء في معرض بيان قبح فعل الحاكم إذا قتل، كيف وهو المنوط بتنفيذ ما من شأنه أن يحفظ حياتهم ويعمل على أمنهم؟!

(صغيرة وكبيرة) لتأكيد دلالة شمول الكتاب للأعمال كافة.

(المستكبرين والمستضعفين) التضاد لإبراز معنى القوة والعتو في الطرف الأول وقبح ممارستها على الطرف الثاني الذي لا يملك إلا الخنوع والاستسلام والذلة والمسكنة تجاه الأول.

(يتنعمون ... بؤسك) في الجملة تحذير للخليفة ممن حوله من علية القوم الذين يعيشون النعيم والثراء على حساب شقائه في الآخرة، هؤلاء لا ينقلون لك الصورة الحقيقية التي عليها الرعية، كل ما يعنيهم أن يتنعموا غير عابئين بغيرهم من الضعفاء

والفقراء، يشترون دنياهم بآخرتك، ففي التضاد إظهار لقبح احتيالهم حين يجعلون من بؤسه وشقائه نعيما لأنفسهم وطيبات يتمتعون بها في حياتهم الدنيا ليفقد هو آخرته.

كما أن ثمة تضاد في التركيب بين من (يسند إليه التنعم) الفاعل الجمعي، وبين من يقع عليه البؤس ضمير المفرد (الكاف) لتبلغ العظة مبلغها وتؤتي ثمارها، فهذه البطانة السيئة يعمها النعيم في الدنيا، وتنفرد وحدك بالبؤس، فلا تقع في براثنهم فيصلحوا دنياهم بإفساد آخرتك.

(لا تنظر إلى قدرتك اليوم، انظر إلى قدرتك غدا) عقد مقابلة تدل على انتفاء التماثل بين ما عليه الحال اليوم، وما سيكون عليه غدا، والمقصود باليوم الدنيا، وبالغد الآخرة.

ويلاحظ أنه ترك أن يقابل القدرة بالضعف أو العجز تأدبا في خطاب الخليفة لئلا يواجه بنسبة الضعف إليه، وترك الأمر موكولا إليه، وليقس هو مدى قدرته اليوم، ونسبة هذه القدرة غدا ليعلم أنها ستنقص بل ستسلب، فلا يستعمل هذه القدرة إلا فيما يرضي الله، ويوقن أنها إلى زوال.

وهكذا يمثل التضاد سمة أسلوبية من سمات التراكيب في نص الرسالة أكدت العديد من المعاني ووضحتها بمقارنتها بأضدادها، وتتجلى فيه نكتة في كل موضع.

٤-إحالات الضمائر:

حققت الروابط الإحالية تماسك النص وترابطه:
في المقطع الثاني ذكر الراعي والإبل ثم تابع الإحالة عليهما بالضمائر، حيث يحيل على الراعي بضمير الغائب المستتر في (يرتاد، ويذود، ويحمي، ويكنف)، ويحيل على الإبل بالضمائر المتصلة في (لها، ويذودها، يحميها، يكنفها).

وفي المقطع الثالث: ذكر الأب وولده ثم جعل يحيل على الأب بضمير الغائب المستتر في (يسعى، ويعلم، ويكتسب، يدخر) وعلى الولد بضمير الغائب المتصل في (لهم، يعلمهم) ..... وهكذا.

وتتضح الإحالة على المخاطب (عمر بن عبد العزيز) من خلال ضمائر الخطاب المستترة في أفعال الأمر، وفي صيغ النهي في الأفعال المضارعة (لا تحكم، ولا تسلك، ...)، وضمائر الخطاب المتصلة في (أشياعك، وأنصارك، ولك، ....)، وضمير الخطاب البارز المنفصل في (وأنت في مهل)، (أنت مأسور..).
واستخدم الإحالة الدلالية في (من يليها)، (من يقتص لهم) إذ ليس المقصود بها إلا الحاكم الذي هو المخاطب.

وتُفسر كثرة ضمائر المخاطب بأنه محور النص وهدفه، وتعكس مدى اهتمام المبدع وحرصه على أن يضعه في مواجهته نصب عينيه مبقيا على انتباهه وإصغائه، فقد بدأ الرسالة بضميره المستتر في (اعلم) وختمها بضميره البارز المتصل في (السلام عليك)

ليبقى التماسك بين طرفي الرسالة أي أن ضمير الخطاب أمسك بالرسالة من أولها إلى آخرها.

بينما تأخرت الإحالة إلى الواعظ صاحب الرسالة إلى آخر النص، حيث ضمائر المتكلم: البارز المتصل في (إني)، (كتابي)، والمستتر في (أبلغ)، (لم آلك).

وتأخر ضمير المتكلم وندرته في النص يدل على إنكار الذات، وإزوائها مما ينم عن التواضع الجم لإمام التابعين، وحرصه على التزام الأدب الرفيع في خطاب أمير المؤمنين.

المبحث الرابع
المستوى التصويري

الصورة البلاغية لا تقف عند الأشياء المادية لتصويرها، وإنما تتعدى ذلك إلى إيجاد حالة شعورية ولحظة انفعالية؛ لتتحول الكلمات إلى استشعار داخلي بواسطة اللغة، وهذا ما لا يفعله أداء الفكرة أداء مباشرا، فضلا عما للصورة من مزية في إثبات المعنى وتأكيده، و"تحتل دراسة الصور المركز في الدراسات الأسلوبية، ...، والقضية التي تطرح على مستوى هذه الدراسة قضية الإنتاج التعبيري للصور " [١] ، أي ما يتبع التصوير من أثر في المعنى وتأثير في المتلقي، وقد برز في الرسالة نوعان من التصوير ندرسهما فيما يلي:

١-التصوير بالتشبيه:

(والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المرعى، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنفها من أذى الحر والقر) تتضح في هذه الفقرة صورة التشبيه التمثيلي المفصلة في جانب المشبه به لينعكس هذا التفصيل على صورة المشبه لأنه مقيس به، والمشبه به موضوع له، فقد شبه حال الإمام العدل في حرصه على رعيته وإشفاقه عليهم، وتقديمه لهم الطيب، ومنعهم عن الخبيث، وحمايتهم من كل أذى، شبهه بحال الراعي الشفيق على إبله ينتقي لها أفضل المراعي ، ويدفعها عما فيه هلكة من حمى محرم ونحوه مما

[١]) الأسلوبية، بيير جيرو، ص٦٦.

يجعلها فريسة للصيد، ويحميها من الحيوانات المفترسة ويذب عنها، ويوفر لها ما يجنبها حر الصيف وبرد الشتاء، يرطب لها جو الحظائر صيفا ويدفئها شتاء.

وامتاز التشبيه بالدقة في اختيار مفرداته، حيث الفعل (يكنف) [١] بما فيه من معاني الإحاطة والحفظ والاحتضان والرحمة والتلطف، والفعل (يرتاد) الدال على التردد على المكان ومعاودته، وذلك لما يجد فيه من الخير لرعيته، وانظر إلى ما في الفعل (يذود) من قوة مصحوبة بالحرص، فعند الخطر يدفع بكل قوة، جاءت هذه الأفعال موصولة بنظائرها في التركيب؛ لتجمع كل أنواع الرعاية والحماية المطلوبة من الراعي لرعيته جلبا للمصالح ودرءا للأخطار والمفاسد.

(والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغارا، ويعلمهم كبارا، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته) تأتي هذه الصورة تالية لصورة الراعي في مزيد من التأكيد على اشتمال الراعي لرعيته بكل صنوف الاهتمام والعناية، وتردده عليهم وتفقده لأحوالهم.

إذ يشبه –هذه المرة– الإمام العدل بالأب العطوف على ولده يشملهم ويحوطهم ويكلؤهم صغارا وكبارا، فهو يسوي بينهم، وهنا يلمح إلى ضرورة المساواة بين الرعية في المعاملة؛ ليسوي الحاكم بين محكوميه على اختلاف طبقاتهم وأنسابهم، لا فرق بين الأمير والعامل الفقير، جميعهم عنده سواء كما يسوي الأب بين أولاده في المعاملة، إن الأب يحرص على ما ينفع أولاده في حياته، ويجدّ في تأمين مستقبلهم بعد

[١]) كنفته: حفظته (أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق/ عبد الرحيم محمود، دار المعرفة –بيروت ص٣٩٩) ، كنفت الرجل أكنفه : حطته وصنته (لسان العرب مادة كنف) .

مماته، إنه يؤمِّل أن يكونوا في غير حاجة بعد فقده، فليكن الحاكم على هذا القدر من الحرص والجد، ليكن همه إصلاح حال الرعية فترة حكمه، وليعمل على أن يمتد أثره بعد أن يؤول الأمر إلى غيره، فإن الحاكم عندما يسن سنة حسنة في حكمه يتأسى به من يأتي بعده، وينكره الناس إذا حاد عنها.

كل هذه الدلالات أفادها صورة الأب مع أولاده، يسعى لتحصيل الرزق لهم صغارا ليسد حاجتهم البدنية، ويعلمهم ويوجههم كبارا ليسد حاجتهم العقلية والفكرية، ويشملهم جميعا برعايته، ويكتسب ما يقيم أمر معيشتهم في حياته، ويدخر ما يجعلهم في مأمن من جائحة الدهر بعد مماته.

(والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة، البرة الرفيقة بولدها، حملته كرها، ووضعته كرها، وربته طفلا، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته) تأتي الصورة الثالثة للتشبيه التمثيلي لتصب في إطار الدلالة الكلية للنص من تعهد الحاكم للمحكومين بالرعاية، ومعاودة تدبر أحوالهم، وتدبير شؤونهم، والعمل على صلاح أمرهم، ومشاركتهم أفراحهم وأحزانهم.

إذ يصور الإمام العدل بصورة الأم في رفقها بولدها، وتحملها التعب والمعاناة والمشقة من أجله من تربية وسهر على راحته، وفرح لفرحه وعافيته، وضيق لضجره وشكايته، إنها الرعاية الكاملة المتدفقة بالعطف والحنان.

والتشبيه هنا يعد نقلة إلى ما هو أدق وأعمق في علاقة الراعي بالرعية ، ودرايته بتفاصيل شؤونهم، ودقائق أحوالهم، واستساغته المشقة من أجلهم، فقد أحسن

المرسِل الترقي بين الصور الثلاث إلى ما هو أعمق إحساسا وأشد حنوا وأكثر تحملا؛ إذ بدأ بصورة الراعي في مسؤوليته عن الإبل ليعطينا معنى الخبرة والقيادة ، ثم ارتقى إلى العنصر البشري إذ تربط العاطفة الأبوين بالأولاد، وبدأ بالأب ليجسد معنى المسؤولية والحرص على النفع، ثم ارتقى إلى الأم الأكثر صبرا على تحمل المشاق، والأعمق ارتباطا بولدها ليجسد معنى العطف والحنان والرعاية الدائمة المتدفقة، هذا التدرج التصاعدي ليستدرج المرسَل إليه إلى تعميق العلاقة بالرعية .

(والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه، وتفسد بفساده) يتجه النص إلى مزيد من العمق في الدلالة من خلال التشبيه، فيعرض –في هذه المرة– الإمام العدل وسط رعيته في صورة القلب بين أعضاء الجسد، فما أعمق تأثيرك أيها الإمام في الرعية! بك صلاحها، وعليك تبعة فسادها، إنها المسؤولية المطلقة، فأنت القدوة لهم إذا صلحت صلحوا، وإن فسدت فسدوا، فهم يستمدون منك روح الصلاح كما تستمد أعضاء الجسم حياتها من القلب، إن الحاكم هو المؤثر المطلق في مجتمعه المحكوم، منه تتعلم الرعية، والمسؤولية جسيمة لا بد أن يقدر الحاكم قدرها، ويخشى تبعاتها وعواقبها، ويجد في تحصيل ما ينجيه.

وإذا كان القلب مسؤولا عن توزيع الدم على سائر أجزاء الجسد، فالحاكم مسؤول عن توزيع العدالة بين الرعية والمساواة بينهم في الحقوق والواجبات، كما يأخذ كل عضو حصته من الدم، يأخذ كل فرد حقه من رعاية الحاكم دون بخس ولا محاباة.

(فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله،

فبدد المال، وشرد العيال، فأفقر أهله، وفرق ماله) هنا ينحو التصوير التشبيهي منحى جديدا عما قبله، في الصور السابقة كان المرسِل يرغب المرسَل إليه في صور رائعة ينبغي أن يكون عليها الحاكم العادل: صورة الراعي في قيادته إبله، والأب في مسؤوليته عن أولاده وحرصه على نفعهم، والأم في رفقها وحنوها وتحملها المشاق من أجل أولادها، أما هنا فإنه ينفره من تلك الصورة البغيضة ليحرص على ألا يضع نفسه فيها، صورة العبد يخون سيده ولي نعمته، حين ائتمنه على ماله وعياله ، وطلب منه حفظهم، فكان منه التصرف الذميم من إهلاك المال وإفقار العيال.

وأنت يا أمير المؤمنين وكيل الله في المال ومؤتَمنه على الرعية، فلتحذر من مثل تصرف هذا العبد الأرعن، فلا تضع شيئا من المال إلا في محله وحيث ينبغي له، ولتضع الرعية في عين الرعاية، وتعطِ كلا منهم نصيبه من المال.

إذن المرسل حريص على أن يتره المرسلُ إليه نفسَه عن هذه الصورة؛ ليجمع في تصويره بين صور مرغوبة للحرص على تحقيقها، وصورة منبوذة يجب تفاديها والحذر منها، وعليه ففي تصويره تضاد دلالي يظهر حسن الصور الأولى ليرغب فيها وقبح الصورة الأخيرة لينفر منها.

وإذا ما ولجنا إلى مفردات الصورة سنجد أنه انتقاها بعناية بدءا من الفعل (استحفظه) الدال على أن سيده طلب منه –بعد أن ائتمنه– حفظ المال والعيال، ونص عليه وأوصاه به، مما ينعكس على صورة المشبه، فإن الله تعالى لم يوله أمر المسلمين ثم تركه هملا، وإنما أكد على ضرورة الحفظ بما يذخر به القرآن والسنة من نصوص.

وحين نعود إلى صورة المشبه به نجد العبد قابل هذا بإمعان في إهلاك المال حيث الفعل (بدَّد) مضعف العين الدال على المبالغة والتكثير، وتضييع العيال حيث الفعل (شرَّد) المضعف العين–أيضا– مبالغة في الفعل، وما لصوت (الشين) من صفة التفشي الدالة على انتشار العيال وتفرقهم في جهات شتى، لم يقتصر على إفقارهم، بل أضاف إليه تفريق وحدتهم وبعثرة شملهم.

ثم أتبع بجملتين مؤكدتين هما (فأفقر أهله، وفرق ماله) لمزيد من تقرير بشاعة الفعل وقبحه في الفكر، والفعل (أفقر) بهمزة التعدية، و(فرَّق) بتضعيف العين، وما بينهما من مجانسة صوتية لتشابه الفعلين في الأثر السيء الناتج عنهما.

(فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه، يسقيه الأدوية الكريهة، لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة) شبه حال كتابه وما به من عظات نافعة يشق على النفس الالتزام بها لكن فيها النجاة، بحال الحبيب يسقي حبيبه الدواء المر رجاء عافيته، ووجه الشبه: الهيئة الحاصلة من تحمل الشاق النافع والصبر عليه طلبا للعافية.

تحمل أيها الأمير ما في الكتاب من عظات كما يتجرع المبتلى الأدوية الكريهة، لا بد من صبر واحتمال، فالنجاة صعبة المنال.

والصورة تعكس حب الحسن لعمر عن طريق المشبه به في قوله (كمداوي حبيبه) فإذا ما نصحه بأمر يشق عليه فذاك لأنه يرجو سلامته مما هو أشق وبلاؤه أدوم، وإذا ما وجهه إلى أمر صعب الاحتمال فلأنه يريد له النجاة مما لا طاقة له به.

وكما ترى، قد عملت الصورة على إنتاج الدلالة وثرائها وتأكيدها في ذهن المرسل إليه وانفعال نفسه بها، وكان التشبيه سمة أسلوبية من سمات الرسالة.

٢-التصوير بالاستعارة:

جاء التصوير الاستعاري أقل إسهاما في تشكيل صورة النص من التشبيه، لكن مواضعه لا تخلو من لطائف تستحق الوقوف عندها لتجليتها، وبيان أثرها النفسي والانفعالي، ومدي قدرتها على إقناع المتلقي والتأثير فيه.

(واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له) الاستعارة في (تزود) جسدت العمل الصالح، وجعلته مؤونته التي يصطحبها في سفره الأخروي، ذلك السفر الذي لا عودة منه، فلا أمل في تجديد الزاد بعودة، فلتكثر منه، فلا سبيل إلى الاستزادة إذا ما بدأت الرحلة.

"والتزود: إعداد الزاد وهو الطعام الذي يحمله المسافر، وهو تفعُّل مشتق من اسم جامد وهو الزاد كما يقال تَعَمَّم وتقَمَّص أي جعل ذلك معه. فالتزود مستعار للاستكثار من فعل الخير استعدادًا ليوم الجزاء شبه بإعداد المسافر الزاد لسفره بناء على إطلاق اسم السفر والرحيل على الموت" [١]

وعليه، فقد شبه الإكثار من فعل الخير استعدادا للموت وما بعده بإعداد المسافر الزاد استعدادا لسفر، ثم استعير المشبه به للمشبه، واشتق منه (تزود) بمعنى استكثر من العمل الصالح.

بالعمل الصالح يتقوَّى الميت، وعليه يعتمد كما يتقوى المسافر بالزاد، وعليه يتكل في سد حاجته، كلما أكثرت من فعل الخير زادت قوتك، وتعزز موقفك، وأمنت الهلكة كما يأمن من اتخذ زاد السفر هلكة الجوع إذا ما تقطعت به السبل.

---

[١]) التحرير والتنوير ٢/٢٣٥،٢٣٦.

إنها صورة منسجمة مع البنية الدلالية الكبرى للنص، فالعدل بين الرعية يأتي على أولويات العمل الصالح الذي يتخذ زادا للآخرة، لا سيما إذا كان الراعي هو حاكم المسلمين أجمعين في أقطار الأرض جميعها، إنها حقوق العباد لا يُتسامح فيها.

(واعلم يا أمير المؤمنين أن لك مترلا غير مترلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريدا وحيدا) هنا يستعير المترل للقبر، إذ يحذف القبر ويدل عليه بالمترل؛ تأكيدا على أنه مأواه الذي يمكث فيه، فهو الأولى بالعناية بتجهيزه، والحرص على ما يحقق الراحة فيه، ويتبع بوصف هذا المترل بقوله (يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك فيه أحباؤك ... وحيدا) إنه مترل يطول المكث فيه حيث لا أنيس ولا جليس يخفف من عبء الوحدة، أو يُطوى معه الزمن، فانظر ماذا عليك أن تعد لنفسك؟ كيف تهيئه لتزول عنك الوحشة والوحدة، ويتراجع عنك الإحساس ببطء الزمن؟ إن ذلك يكون بالتزود بالعمل الصالح الذي على رأس أولوياته للحاكم العدل بين الرعية ، وبث الأمن والطمأنينة في نفوسهم .

وتأتي استعارة أخرى في قوله (قبل انقطاع الأمل) إذ شبه الأمل بشيء مادي محسوس، فأثبت له (الانقطاع) على سبيل الاستعارة المكنية التي جسدت الأمل، وحثت على التمسك به، وتدارك الأمر قبل فوات الأوان، إن الأمل شيء نفيس لا بد أن يحرص عليه، إذا انقطع لن يعود، فهذا ترغيب في إقامة العدل في صورة ترهيب وتخويف من فوات الفرصة.

فهي استعارة تزجي نحو الغرض المقصود وتصب في البنية الدلالية الكبرى للنص، حيث تتعاون أجزاء النص على أداء غرض واحد وفق نظرية النظم.

(انظر إلى قدرتك غدا، وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم) استعارة تدعمها الصورة الحسية، حيث التصوير المشهدي لليوم الآخر ووقوف الإنسان بين يدي الله خاضعا ذليلا، بعد أن تجرد مما كان له من قوة في الدنيا، فحين تموت تنقطع أسباب قوتك، وتؤول قدرتك إلى عجز.

يُذكر المرسِل المرسَل إليه بهذا الموقف العظيم ويستحضر المشهد في ذهنه؛ لئلا يغتر بما خُول من قدرة وسلطة في الدنيا لأن مآلها الزوال.

ونجد الاستعارة في (وأنت مأسور في حبائل الموت) تجسد معنى العجز أيما تجسيد، فقد أوثقه الموت بالحبال، فسلبه الحركة، وصار أسيرا لديه لا يملك من أمر نفسه شيئا، وجرده من كل حول وقوة.

هذا عن الناتج الدلالي للاستعارة ، ولها فائدة أخرى ، فقد أظهرت حسن أدب الحسن البصري في خطابه أمير المؤمنين إذ رفعت عنه الحرج من نسبة العجز إليه صراحة ، وأدت المعنى المقصود أتم ما يكون الأداء .

كل هذه الصور البيانية تسهم في بناء الصورة الكلية للنص.

الخاتمة

– يتسم النسيج الصوتي بالمراوحة بين الخفة والشدة، والرقة والغلظة، والسلاسة والصعوبة، والحركية والاضطراب، وإن كانت الغلبة للإيقاع الخفيف السلس، أما النغمة الموسيقية فتتسم بالعلو والوضوح دون مراوحة.

–بدا التوافق واضحا بين الصوت والدلالة، حيث تكرار اللازمة، وتكرار بعض الأصوات التي تجسد المعاني التي يتطلبها العدل من تكرار المتابعة والتردد على الرعية مثل صوتي الراء والعين.

–تتضح سيادة المعجم الديني، لملاءمة المفردات الدينية لغرض الرسالة الوعظية، ومناسبته لأداء الغرض المسوق له الكلام.

– الاعتراض السمة التركيبية الأولى البارزة، حيث جاء الاعتراض بالنداء في نص الرسالة في ستة عشر موضعا، يليه الوصل فقد تضامت جمل الرسالة بعضها إلى بعض من خلال العطف بالواو، أو الربط الدلالي بالوصل الخفي، يليه التناص، فقد تفاعل الكاتب مع نصوص القرآن الكريم التي ملأت قلبه، وانطبعت بها نفسه، ففاضت على لسانه ، وسال بها قلمه في عظته .

–سيطرة الفعل المضارع المثبت على الجمل الفعلية الخبرية بما يتسم به من حركية واتساع وانفتاح على جميع الأزمنة، وما يحققه من استحضار الصور، ومعايشة المشهد.

–النداء هو السمة الأبرز في النص وسط الأساليب الإنشائية التي وردت في الرسالة.

-أوضحت الدراسة الأسلوبية أن التضاد سمة أسلوبية من سمات التراكيب في نص الرسالة، أكدت العديد من المعاني ووضحتها بمقارنتها بأضدادها، وأكدت أصالته في التركيب، ونفي أن يكون حلية بديعية عرضية.

-كان لإحالات الضمائر دور مهم في تماسك النص وترابطه.

-التشبيه سمة أسلوبية من سمات التصوير في الرسالة، فقد ذخرت بالصور التشبيهية التي ترسم نهج الحاكم العادل (صورة الراعي، وصورة الأب، وصورة الأم ....).

المصادر والمراجع

١. آداب الحسن البصري وزهده ومواعظه لابن الجوزي، تحقيق /سليمان الحرش ط١ دار الصديق دمشق، بيروت ٢٠٠٥ م
٢. استراتيجيات الخطاب –مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط ١ دار الكتاب الجديد المتحدة –بيروت ٢٠٠٤م.
٣. أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق/ عبد الرحيم محمود، دار المعرفة – بيروت.
٤. الأسلوبية، بيير جيرو، ترجمة /د. منذر عياشي، ط٢ مركز الإنماء الحضاري –حلب ١٩٩٤م
٥. الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، أحمد الشايب، ط٢ النهضة المصرية–القاهرة ١٩٨٨م.
٦. الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ط ٤ الأنجلو المصرية ١٩٩٩م.
٧. الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية، سمير شريف استيتية، ط١ دار وائل –عمان ٢٠٠٢ م.
٨. البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب، ط١ مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان –الجيزة ١٩٩٤م
٩. البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، هنريش بليت، تر/ د. محمد العمري، أفريقيا الشرق –المغرب، بيروت ١٩٩٩م

١٠. البنى الأسلوبية دراسة في (أنشودة المطر للسياب)، حسن ناظم، ط١ المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء –المغرب ٢٠٠٢م.

١١. التحرير والتنوير، لابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس ١٩٩٧م.

١٢. جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (العصر الأموي)، أحمد زكي صفوت، ط١ الحلبي–القاهرة ١٩٣٣م

١٣. الحسن البصري من عمالقة الفكر والزهد والدعوة في الإسلام (رسالة دكتوراه) مصلح سيد بيومي –كلية أصول الدين– جامعة الأزهر ١٩٧٣م.

١٤. خصائص التراكيب –دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد محمد أبو موسى، ط ٧ مكتبة وهبة.

١٥. خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس، منشورات اتحاد العرب دمشق ١٩٩٨م.

١٦. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق /محمود محمد شاكر، ط٣ المدني –القاهرة وجدة ١٩٩٢م.

١٧. دينامية النص تنظير وإنجاز، د. محمد مفتاح، ط١ المركز الثقافي العربي– الدار البيضاء، بيروت ١٩٨٧م

١٨. سر صناعة الإعراب، ابن جني، تحقيق/حسن هنـــداوي، ط١ دار القلم –دمشق ١٩٨٥م.

١٩. العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، تقديم /خليل شرف الـــدين، ط١ دار ومكتبة الهلال ١٩٨٦م.

٢٠. في علم المعاني، د. حمزة الدمرداش زغلول، ط٢ بل برنت–القاهرة ١٩٨٧م.

٢١. قضايا الشعرية. رومان ياكبسون، تر/ محمد الولي ومبارك حنـــوز، ط١ دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ١٩٨٨م.

٢٢. لسان العرب، لابن منظور، ت– أمين محمد عبد الوهاب، محمـــد الصادق العبيدي، ط٣ إحياء التراث العربي – بيروت ١٩٩٩م.

٢٣. لسانيات النص عرض تأسيسي، كيرستن آدمتسيك، تـــر/ ســـعيد حسن بحيري، ط١ زهراء الشرق –القاهرة ٢٠٠٩م.

٢٤. مبادئ الأسلوبيات العامة، بيار لرتوما، تـــر/ محمـــد الزكـــراوي، مراجعة/ حسن حمزة، ط١ المنظمة العربية للترجمة –بيروت ٢٠١١م.

٢٥. المعاني (دراسة في الانزياح الأسلوبي) د. عزة محمد جـــدوع، ط٢ مكتبة المتنبي ٢٠١٧م.

٢٦. مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق /عبد الســـلام هـــارون، ط دار الفكر ١٩٧٩م.